روايات غادة

غادة

العَوْدَة المتأخِّرة

www.elromancia.com

مرمورية

دار الغد الجديد
بيروت - لبنان

روايات غادة

العودة المتأخرة

ساندرة تشارلتون

حلم آخر صيف لايلثيا في منزل عمها . . عاد من جديد إلى الواجهة حين أرسل يطلبها إليه، قائلاً إن أيامه معدودة . . في منزل عزبته . . واجهت من جديد عودة متأخرة إلى حب قديم لربيبه نيل جعلها يوماً رهينة المراهقة . لكن نيل في طريقه للزواج من حسناء اخرى . . فماذا ستفعل بقلبها الذي لم يكبر بعد عن سنينها الخمسة عشر يوم أحبته ؟ .

يطلب من مكتبة الصفاء
ابو ظبي
تلفون ٧٧٢٠٥٣

يطلب من دار إحياء العلوم
الدار البيضاء
تلفون 319411

يطلب من شركة دار الفكر
تونس
تلفون 564785

وكيل التوزيع الوحيد في الكويت
الثمني للنشر والتوزيع
تلفون ٣٧٢٨٩٩

١٠.

لست جبانة !

لا شيء تغير!

تنهدت إيلثيا بارتياح . . المنزل لا زال كما هو، ثابت آمن، وسط مجموعة الأشجار التي تحميه، النوافذ عريضة مشرقة أنيقة تحت أشعة شمس تموز الحارة . . والتاكسي يدخلها عبر الممر الداخلي القصير، المظلل بالأشجار، تذكرت آخر مرة كانت فيها هنا في «رايڤن هال»، منذ سبع سنوات تقريباً .

لطالما كان العم والتر ترانغ غامض بالنسبة لها، كما هو بالضبط لبقية عائلته . . غرابة أطواره كانت دائماً تحيرها، وتخيفها أحياناً . . لفتاة كانت لا تتجاوز الخامسة عشرة، كان له تأثير كبير .

لكونها كانت يتيمة، وضعت تحت وصاية عمتها باربرا، التي لم تتردد في الاستفادة بسرعة من الدعوة غير المتوقعة للإقامة في «رايڤن هال» . . فالسير والتر ترانغ، في الواقع العم الأكبر لأيلثيا، والعمة باربرا هي ابنة أخيه . ولم يكونا على وفاق أبداً .

حين كبرت إيلثيا بما يكفي لتفكر بنفسها، ارتابت في أن تكون

الفوارق المالية هي السبب الرئيسي للخلاف بينهما. . فالعم السير والتر، كان غنياً إلى أبعد مما تتصور إيلثيا. . بينما العمة باربرا كانت تعيش من دخل متواضع تركه لها زوجها المتوفي .

أقامت يومها في «رايڤن هال» أربعة أشهر، ثم، وبدون مقدمات، وكما هو محتوم، تخاصما، ووجدت إيلثيا نفسها صباح يوم، مطلوبة لتوضيب حقيبتها، وأن تغادر المنزل الفخم، برفقة عمتها الباكية الساخطة. . تذكر جيداً وقوفها في الردهة وحقيبتها إلى جانبها، تنتظر التاكسي ليوصلهما إلى محطة القطارات. . ونيل، يخاطر بتلقي غضب زوج أمه بوداعهما .

نيل بينروز كان الفسحة المشرقة في الأشهر الأربعة من إقامتهما هنا. . إيلثيا الكبيرة الآن، العائدة إلى منزل عمها الأكبر، تذكرت مشاعرها المبكرة نحوه بابتسامة. . كانت مشاعر طفولية من الإعجاب المراهق. . فهو كان يومها شاب ناضج في بدء رجولته. . وعلى الأرجح أحس بالإحراج لتعلقها الأرعن المؤلم به. مع أنه لم يُظهر أي امتعاض، بل عاملها بلطف، خاصة حين كانت تنكمش من لسان العم والتر السليط الحاد. حتى أنه علمها الركوب، ولو أنها كانت تلميذة سيئة ولم تصبح أبداً كفوءة .

كان السير والتر قد تزوج في وقت متأخر من حياته، ليحصل على ابن زوجة صغير في السن، بنفس النسبة التي كانت فيها زوجته. . ولم يتغلب تماماً على صدمة وفاتها المفاجئة، وفي سن مبكرة نسبياً، ليصبح بعدها ناسكاً، غريب الأطوار، مع أن ابن زوجته كان يرى فيه الرفقة المقبولة وبقي يسكن مع الرجل العجوز .

الدعوة الحالية، التي أرسلها العم والتر، جاءت دون سابق توقع. . كما كان قد فعل في السابق، لكن هذه المرة استثنى العمة باربرا من

الدعوة الأمر الذي دفع إيلثيا إلى الأسف. لكنها لم تعد تُقيم مع عمتها لانتقالها إلى لندن منذ ثلاث سنوات، مصممة على الإستقلالية والاعتماد على نفسها لتعمل مندوبة مبيعات في شركة تجارية. . ورسالة العم، برغم قصرها، كانت على شكل أمر لا يترك مجالاً للتفكير بالرفض. . إذ طلب منها ترك عملها، والمجيء للعيش في رايڤن هال لشهرين أو ثلاثة، لأنه لن يعيش طويلاً بعد، وهو ليس بالرجل الفقير إطلاقاً .

إيلثيا في الأساس فتاة أقصر من المعدل العام، توصف عادة بالصغيرة الجسم. . وبارتدائها فستاناً قصير الأكمام، بالكاد كانت تظهر أنها أكبر مما كانت منذ سنوات عديدة. شعرها البني القصير كان يستدير حول وجه أكثر من جميل، له أنف صغير مرتفع كالأرنبة، وعينان زرقاوان كبيرتان محاطتان بإطار أسود. الفم المبتسم دائماً، كان أوسع من مواصفات الجمال العادية، لكنه رقيق ناعم جميل تبدو عليه آثار الابتسام الدائم .

ـ ها قد وصلنا آنسة .

أخرج السائق الحقائب لها، من صندوق السيارة، ووضعها على الأرض قرب السلم الصغير، ورفع يده إلى قبعته محيياً قبل أن ينطلق. وكانت على وشك أن تشد على مقبض جرس الباب اليدوي، حين سمعت صوت سيارة تقترب، فاستدارت بسرعة.

وقفت السيارة الفخمة أمامها مباشرة، فعرفت مجفلة أن سائقها كان نيل بينروز. فلا مجال للخطأ مع ذلك الوجه الأسمر الحادق النحيل، وما أجفلها أكثر أنه لم يكن يبدو أكبر مما كان سناً سوى بقليل .

خرج من السيارة مبتسماً، يمد يده بالترحاب، بينما كانت إيلثيا تحاول كبح شعور محرج بعودة إفتتان المراهقة به والذي ظنت أنها كبرت عليه. كان لا يزال يبدو بالنسبة لها طويلاً. عيناه البنيتان، مع اتجاههما المثير

إلى الأعلى من اطرافهما، نظرتا إليها متفحصتان . . وأصابع يده الاخرى ترفع خصلة شعر عن جبينه .

ـ إيلثيا؟ رائعة جداً . . ! لقد تحسنت دون شك مع تقدمك في السن .

ـ مرحباً نيل . . وأنت لم تتغير .

تركت عيناه وجهها لتمر متفحصة على جسدها من القمة إلى الأسفل، ثم العكس . . وابتسم قائلاً :

ـ أما أنت، فقد تغيرت . .

ـ أصبحت أكبر سناً . . وهذا يظهر عليّ أكثر منك .

ابتسم مجدداً :

ـ النساء والجواهر، يكسبن البهاء كلما تقدم بهن السن . . لم ألحق بك في المحطة . . أظنك خرجت من الباب الخلفي، دون التطلع لرؤية ما إذا كان هناك من ينتظرك .

هزت رأسها :

ـ هذا صحيح . . فقد خرجت من أقرب باب إليّ . . ولم أكن أدري أن هناك من ينتظرني .

ـ كان يجب أن تنظري حولك على الأقل، بدلاً من أن تبقي لوحدك هناك تدبرين أمرك بنفسك، وهذا كما أذكر، أمر لست بارعة فيه جيداً .

التقط الحقيبتين الثقيلتين دون جهد يذكر، ولحقت به إيلثيا، مقطبة لرأيه بها أنها عاجزة . وقالت :

ـ أنا قادرة تماماً على تدبير أمر نفسي . . أعيش في المدينة لوحدي منذ ثلاث سنوات . . وأتدبر أمري بشكل جيد .

دفع الباب الخشبي المتين بكتفه، فانفتح يصدر صريراً قوياً، ذكرها

بآخر زيارة لها . . من المذهل أن شيئاً تافهاً كهذا يبقى ملتصقاً في ذاكرتها، لكنها لا زالت تذكر هذا الصرير، وابتسمت معلقة :

ـ لم تضعوا الزيت على هذه المفصلات بعد، كما أرى .

بدت الدهشة على وجهه الأسمر :

ـ ذاكرة قوية لمثل هذه التوافه . . أكان يصرّ هكذا من قبل؟ .

ـ مثل الآن تماماً . وأذكر هذا جيداً .

ـ إذاً كان الأمر قديماً هكذا . . يجب أن أكلّف موبرلي به .

ـ موبرلي؟

ـ بعض الأمور تغيرت خلال ابتعادك عن هنا . لدينا الآن إسطبل استيلاد للجياد، مشروع مربح، وموبرلي يساعدنا، في الاسطبل وفي البيت . . يقوم بالأعمال المختلفة .

ـ اوه . . هكذا إذن . . ولا اعتقد أن الجواد العجوز «سالم» لا يزال هنا . . صحيح ! .

ـ المسكين نفق . لكن ذريته لا زالت موجودة، فلقد كان نتاجه، سلسلة نسب رائعة . . . ألا زلت راكبة خيل سيئة؟

ـ لم أركب جواداً منذ كنت هنا . ولا اعتقد أنني أذكر كيف أفعل .

ـ سأعيدك إلى التدريب سريعاً . وسيكون التدريب جيداً لك بعد حياة الاسترخاء في المدينة . لقد اكتسبت سمرة جميلة، مع أنني لا أكره الصورة البيضاء والزهرية التي اذكرها عنك .

أدارت إيلثيا رأسها عنه، واحست بالحمرة تكتسح وجهها . مع أنها تذكر، بأنها منذ سبع سنوات، كانت تموت شوقاً لأن تراه يتصرف معها هكذا .

بدت الردهة من الداخل، كما تذكرها تماماً . . لكن هناك تغيير أساسي بدا ظاهراً في السجادة الجديدة التي تغطي الأرض، وفي لمعان

الخشب الذي يكسو الجدران، والنحاس اللامع . . . بملاحظة اهتمامها بما يحيط بها، قال لها نيل :

ـ لقد اقنعت أبي بأن يوظف مدبرة منزل تقيم هنا. ويبدو المكان غير مهمل الآن . . أليس كذلك؟

هزت رأسها :

ـ يبدو جميلاً .

أجفلت لانفتاح باب خلفها بحدة، إنه باب المطبخ كما تذكر، والتفتت، ليبتسم نيل للقادمة، امرأة قصيرة، ممتلئة الجسم، مسنة . . وأشار إلى الحقيبتين :

ـ لقد وصلت ضيفتنا . . إيلثيا هذه السيدة موبرلي، صاحبة الفضل في كل هذه النظافة واللمعان .

لم يعطِ أي منهما فرصة التفكير بالتعارف الذي أطلقه، بل التقط الحقيبتين وتقدم نحو السلم، لتلحق به إيلثيا، الغرفة الأولى إلى اليسار عند أعلى السلم مباشرة كانت لها، وتمنت أن تكون الآن لها، لأن للغرفة مطل جميل جداً من النوافذ. ووضع نيل أحد الحقيبتين أمام الباب ليفتحه .

ـ ستحلين في نفس الغرفة كما من قبل .

ـ أذكر هذا .

وضع حقيبتها عند أسفل السرير العتيق النحاسي المزخرف نفسه وقال :

ـ أراهن أنك لن تذكريها . . فقد أعيد تزيينها إكراماً لك .

بدا أن هذا صحيح . . وابتسمت إيلثيا سعادة لهذا التغيير آخر مرة، كانت الغرفة معتمة، خشبها قاتم، جدرانها مدهونة بالأحمر الداكن، إما الآن فالجدران مدهونة بلون الشمس الأصفر البراق . . خشب

الجدران لماع بلون فاتح . . وقالت :

ـ إنها جميلة ومشرقة . أفضل بكثير من الماضي . هل أخذت الألوان بنفسك نيل؟

ـ طبعاً . . وكنت أعرف أنها ستعجبك .

لا تذكر أنها ظنته متعجرفاً من قبل . . وبدت لها الكلمات لا تناسب ما في ذهنها عنه، وبدأت تنظر إليه نظرة جديدة . . جسدياً، لم يتغير، لكن، إما أن يكون قد تغير بطريقة حادة، أم أنها الآن تحس بأشياء لم تلحظها من قبل . . . لقد لاحظت الكثير من نظرات الإعجاب التي كانت تطوف بها، مع كل محاولته إخفائها، لتستقر في النهاية على فمها . .

قال لها مبتسماً :

ـ كان عليّ أن اختار شيئاً أكثر غرابة في الألوان، لو أنني كنت أعرف كم أصبحت جميلة .

كانت تذكر أن صوته عميق ناعم، لكنها لم تكن تعرفه أبداً سلاح إغراء حتى الآن . وأحست بدفء اللون الأحمر في وجنتيها مجدداً، وأدارت ظهرها إليه لتتحسس أغطية الفراش الصفراء الحريرية وقالت :

ـ أن لا أحب الغرف البراقة الألوان كثيراً . وتعجبني هذه كما هي الآن . . نيل اتعرف لماذا طلب مني العم والتر المجيء والإقامة هنا؟

ابتسم :

ـ ولماذا جئتِ ؟

ـ لست أدري . . ربما بدافع الفضول .

ـ أليس لأنك مرتزقة؟

احمر وجهها بشدة، وردت بحدة :

www.elromancia.com

ـ ماذا تعني ؟

بقي مبتسماً، يده في جيبه، غير مكترث من غضبها مما يقول :

ـ قرأت رسالة أبي لك، إيلثيا . . إنها تلمح إلى أشياء قد تدفع بغريزة الإرتزاق لدى أي امرأة أن تظهر نفسها . . وها أنت هنا!

حدقت إليه لحظات، يتملكها الذعر من رأيه الوضيع فيها . . لكن دون أن تكون متأكدة من صدق كلامه أم لا . . وأجابت :

ـ أتعني . . . ليس لديك الحق في أن تشير إلى أنني جئت إلى هنا لمجرد . . . بسبب أن عمي والتر . . . ثري . .

سألها برقة المداهن :

ـ وما يمكن أن يكون السبب إذن ؟

ترددت، عيناها حذرتان، تنظران إليه من بين رموشها :

ـ لأنه عمي ! .

ـ وأنت لم تشاهديه منذ سبع سنوات .

ـ لم تكن هذه غلطتي . . تشاجر مع عمتي باربرا، وإن كنت أقيم معها ولم أستطع أن اتحداها . . ثم لم يكن يحبني .

هز نيل رأسه :

ـ بالطبع كان يحبك . . لكنك لم تفهميه إيلثيا .

ـ لكنه كان دائماً . . فظاً . . و . . قاسياً . .

ـ إنها طبيعته ، وليست مخصصة لك فقط . . إنه لا يتكلم ولا يتصرف بشكل مغاير عن هذا .

ـ ألا يزال؟

ابتسم :

ـ لا تخافي . . لن يأكلك .

ـ كان يخيفني لدرجة الموت رعباً من قبل . . ولهذا كنت ممتنة جداً

لك .

بدت عليه الدهشة وكأنه لم يفهم ما تعني :

ـ ممتنة؟ لا أستطيع تصور السبب .

ـ كنت لطيفاً جداً معي نيل . . وأنا . . .

أنهى لها ترددها :

ـ وأنت، كان لك أروع تعلق بي .

وضحك لمشاهدة عبوس الإحراج . فقالت بحدة :

ـ أنا مسرورة لأنك وجدت الأمر مضحكاً . . . لكنك مت خجلاً لو عرفت يومها أنك تعرف .

ضحك مجدداً!

ـ كان من الصعب أن لا أعرف . كنت تلحقين بي في كل مكان، وعيناك متعلقتان بي .

وتحطم حلم مراهقتها بفظاظة . . وقطبت مقررة أن نيل بينروز لم يغيره العمر . . وردت عليه :

ـ أنا آسفة لو كنت أحرجتك . . لكن على الأقل لن يقلقك هذا وأنا هنا هذه المرة .

تنهد مبالغاً . . وأحست، واثقة، أنه غير صادق حين قال :

ـ هذه المرة لن أعترض أبداً .

لقاء السير والتر ترانغ، كان صدمة قوية لأيلثيا . . وتمنت لو أن نيل حذرها كم تغير الرجل . منذ سبع سنوات كان مسناً . . لكنه الآن عجوز . . كان أكثر من الثمانين بسنة أو سنتين، طبعاً، لكن العينان الزرقاوان الضيقتان الناظرتان من تحت حاجبان رماديان كثيفان، كان لهما نظرة حادة حذرة لم تؤثر السنوات فيها . . وفي الواقع أحست أنها عادت ثانية تلك الفتاة الصغيرة . . وكادت تخبىء رأسها منه . .

www.elromancia.com

ولوحت لها يد معروقة نحيلة لتتقدم :

ـ إيلثيا؟

ـ مرحبا . . عمي والتر .

لم تكن واثقة ما إذا كان من المفروض أن تقبله، لكنها ترددت في هذا إلى أن تصبح واثقة أكثر . . وأكمل يقول بصوت الرفيع النزق كالعادة، مع نفاذ صبر .

ـ حسناً . . تعالي يا فتاة . . تعالي إلى هنا .

ضاقت عيناه أكثر وهو يتفرس فيها، وأدركت من منظرهما أنهما ضعيفتان جداً، مع حدتها الظاهرة . فتقدمت لتقف قرب كرسيه، وقد غمرها إحساس فجائي بالعطف والشفقة :

ـ كم أنا مبتهجة لرؤيتك ثانية عمي والتر .

نظر إليها بفظاظة :

ـ أنت فتاة جميلة حقاً . لقد تجاوزت مرحلة البشاعة . .

أحست برغبة في الضحك . . فهذا أكثر إطراء غير ودي سمعته . . لكنها قالت باتزان :

ـ شكراً لك .

ـ كم عمرك الآن؟

ـ في الثانية والعشرين عمي والتر .

ـ تزوجت؟

ـ لا . . لم اتزوج .

هز رأسه :

ـ همم . . أتعرفين أنني رجل ثري جداً يا فتاتي؟

السؤال لم يكن متوقعاً . فاحنت رأسها ببطء متذكرة رأي نيل بينروز فيها .

ـ أجل . . أعرف هذا عمي .

ـ لهذا جئت ؟ .

نظرت إليه ساخطة، تتمنى لو لم تكن حمقاء هكذا لتقبل دعوته الغامضة . . وقالت له :

ـ لقد أتهمت منذ قليل بأنني مرتزقة . . وأنا لا أحب مثل هذا التلميح . . عمي والتر . فإذا كان هذا ما تظنه بي، فلماذا أرسلت في طلبي ؟

صمت لحظات، ثم ضحك :

ـ لك روح مقدامة . . وأحب هذه الصفة في امرأة . . إذن . نيل داس على قدمك . . أليس كذلك؟

ابتسمت إيلثيا :

ـ نستطيع قول هذا . يبدو أنه يظن أنني جئت إلى هنا لأنك قريب ثري جداً . وهذا غير صحيح . . . لقد أصابني الفضول في الواقع . . . واعتقد أن واقع ثراك كان في مؤخرة تفكيري . لكنه لم يكن السبب الرئيسي الذي جاء بي إليك . . أصدقت هذا أنت ونيل، أم لم تصدقاه .

ـ أردتك هنا، لأن أيامي أصبحت معدودة . ولم أرك منذ سبع سنوات . . . ولم أكن أعرف ما إذا كبرت لتصبحي مثل عمتك اللعينة الغبية . . كنت أريد التأكد بنفسي أولاً .

ـ أولاً ؟

ـ قبل أن اعيد كتابة وصيتي . . . لم أستطع أن أموت وأترك نصف ثروتي لفتاة غبية لا تعرف كيف تنفقها . . . كان من الممكن أن تكوني نسخة طبق الأصل عن عمتك الحمقاء .

ردت بثبات، ترفض سماع ما يسيئها عن عمتها :

ـ عمتي باربرا كانت لطيفة معي . . . وسأكون سعيدة لو كبرت

www.elromancia.com

لأشبهها، عمي والتر .

لمعت عيناه الصغيرتان بالشرّ :

ـ هاه! وكم كان هذا سيفيدك! أنت ونيل الوحيدان من عائلتي أهتم بهما، وأنتما من ستنالا مالي . . بعد أن رأيتك الآن .

ـ أنا . . ممتنة لك عمي والتر .

ـ ممتنة؟

ـ ممتنة لكرمك . . كنت أتوقع أن تترك كل شيء لنيل . . فهو على أي حال بقي معك معظم حياته، وابنك بالتبني اضافة إلى كونه ابن زوجتك . .

ـ لا بأس به . . أقلت أنك تجادلت معه؟

ـ ليس جدالاً عمي . . فنحن لم نرَ بعضنا كثيراً ليحصل جدال بيننا . . . لكنه تغير .

هز العجوز رأسه :

ـ إنه لا زال كما هو . أنت من تغيرت يا ابنتي . . كنت تلحقين به كالجرو المدلل .

ـ لقد بحثنا هذا الأمر عمي . . يبدو أنني كنت السبب الرئيسي للكثير من التسلية .

ـ أهذا ما قاله لك؟

ـ أجل . . وصدقته . واستطيع الآن تصور كيف يكون تعلق فتاة بلهاء في الخامسة عشرة من عمرها مسلياً، إذا لم يكن مزعجاً .

لكنك كنت فتاة جميلة بالرغم من بلاهتك . . كما أن نيل لم يكن كارهاً ليكون فارس الأحلام .

ـ هذا صحيح . . لكنني قلت له أن لا داع للقلق بعد اليوم .

ـ وهل تغلبت على حبك لفارس أحلامك؟

ـ طبعاً . . لم أعد مراهقة الآن .

ـ أوليس لك شاب يغازلك الآن ؟

ـ لديّ العديد عمي . . لكن ما من واحد أحس نحوه بالجدية .

ـ هذا أمر جيد . . بله المراهقة أمر لا بأس به، على أن لا يفضي إلى الزواج من أول شاب يطلبك .

في الصباح التالي وجدت أن رفيقها الوحيد على الفطار كان نيل . . مرة أخرى أحست بالانزعاج من الخجل حين شاهدته في تلك الغرفة البيضاء الجدران التي تعرفها جيداً . ووقف حين دخلت . ثم عاد للجلوس كي يكمل فطاره !

ـ أنت متألقة سحراً هذا الصباح .

ـ أنا معتادة على الاستيقاظ باكراً .

ـ أتودين المجيء إلى الإسطبل معي؟

نظرت إليه مفكرة :

ـ أجل . . شكراً لك نيل . . أود رؤية جيادكم .

ـ هناك بضعة أمهار بإمكانك العناية بهم .

ـ أوه . . كم هذا جميل . . كم عددهم ؟

ـ اثنان . . ولدا خلال ساعتين في نفس اليوم من الأسبوع الماضي . . . وكانت ليلة رائعة .

ـ أتصور هذا .

وقف عن المائدة، متمتماً بالاعتذار بابتسامة عريضة :

ـ بإمكانك الوصول إلى الإسطبل لوحدك . . أليس كذلك!

ـ أجل . . . اعتقد أنني أذكر المكان .

ـ حسن جداً . . سأراك بعد انتهاء فطارك إذن .

كان واضحاً أنه فخور بمشروعه المغامر الجديد، وتساءلت ما إذا كان

www.elromancia.com

هـذا مرده روحـه المستقلة، التي دفعته إلى مشروع يكسب منـه عيشـه، بدلاً من الترفل بالحياة المريحة على حساب زوج أمه .

أنهت الفطار، وودعتها السيدة موبرلي باتجـاه الاسطبـل مع ابتسـامة وديّـة . هناك الكثير من الأراضي التابعـة لرايفن هـال والحـدائق خلف المنزل تكون رائعة في مثل هذا الوقت من السنة .

وجدت نيل دون مشقة . . واعجبت للفور بـالمخلوقين الجـديدين . فـوق العشب، وجدت حصـانان يـرعيان، حصـان كستنـائي طـويـل الجسم، وآخر أغبر اللون، قصير السيقان، ذكرها عـلى الفور بسـالم . . ذلك الجواد الذي تعلمت الركوب فوقه . . وأشار نيل :

ـ هذا حفيد «سالم» أتظنين بإمكانك ركوبه .

ـ أنا واثقة أنني لن استـطيع . مضت سبـع سنوات لم أركب فيهـا أي جواد . . وهو يبدو لي لعوباً .

ـ هـراء . .

ونادى الأغبر إليه قرب السياج .

ـ إنه كالحمل الوديع . . الست كذلك يا صاحبي ؟

ـ لن يخدعني كلامك نيل . . فأنا لست مهيئة لركوب الخيل .

ضحك، لتتجعد زوايا عينيه، وبدت السخرية في كلامه :

ـ أنت مهيئة إلى أي شيء يبرز قوامك الشهي . . أنت خلقت جبانة، إيلثيا ترانغ .

ـ لست جبانة . . لكنني لا أحب الجياد . . هذا كل شيء .

ـ مـوافق معـك . . لكن هـذا لا يعني أنـك لا تستـطيعي ركـوب الجياد . . هيا الآن إيلثيا كوني رياضية الروح على الأقل .

ـ لا ! . .

كانت ستبتعد، لكن أنف الأغبر اندفع بين يـديها المتشـابكتين فـوق

السياج، وسرعان ما تجاوبت مع دعوته للمداعبة :

ـ إنه جميل . . مثله مثل سالم العجوز العزيز .

ـ لماذا لا تثقين به إذن ؟

ـ لا . . لا نيل . . لن أخدع نفسي كي أوفر لك شيئاً تضحك منـه لقد نلت ما يكفيك من هذا منذ زمن بعيد .

لمعت عيناه بخبث :

ـ أوه . . لكنني لم أضحك عليك . . . صدقاً ! .

ـ لكنـك اعترفت . . وأنـا أنكمش خجـلاً كلما تـذكـرت كيف كنت التصق ممتنة لأية بسمة أو كلمة تجود بها عليّ .

انفجر ضاحكـاً، وأحست بالإحمـرار يغزو وجههـا، وأدارت وجهها عنه بعد أن لم تعد تستطيع تحمل مزاحه .

ـ أوه . . كم كنت عبـدة صغـيرة لـطيفـة . . لم أكن قـاسيـاً معـك في الواقع، صحيح إلثي ؟ حاولت جهدي أن لا أكون .

ـ اعتقد هذا . . ظننتك كنت لطيفـاً معي يومهـا . . والآن فقط أرى بوضوح كم كنت حمقاء .

ـ لكنك كنت صغيرة .

ـ عللت نفسي بهذا العذر . لكن كان من الأفضل أن لا أراك ثانية .

ابتسم :

ـ وهل تبددت أوهامك ؟

ـ أجل . . وأظن من الخطأ التطلع إلى الوراء . . ألا تظن هذا ؟

ـ أحيانـاً .

مـد يده ليمسـك وجهها لحـظات قبـل أن يحني رأسـه ليقبـل جبينهـا بلطف ورقـة . حتى أنها أغمضت عينيها وأسنـدت رأسهـا إلى أصـابعـه القـوية . . ثم فتحت عينيهـا لتنظر إليـه، تحس بالخـوف لخفقـان قلبهـا

بجنون، والاحمرار الذي أحرق وجنتيها . . ثم حركت رأسها لتخلصه من يده. ثم قالت :

ـ نيل . . منذ سبع سنوات، كان يمكن أن أفقد الوعي لو فعلت هذا بي . . . ومن الجيد جداً أنني كبرت على مثل هذه الأمور .

ردد بنعومة :

ـ من الجيد جداً أنك كبرت . . فقد أصبح الأمر مسلياً أكثر الآن . .

٢٠.
إلى أين ؟

كانت إيلثيا تنوي تأخير فطارها في الصباح التالي إلى ما بعد أن تتأكد من انتهاء نيل من فطاره. لكنها فكرت بإمكانية أن يرى في هذا أمراً مميزاً خاصة بعدما حصل بالأمس .

حين دخلت غرفة الطعام رفع نظره وابتسم :

ـ تبدين منتعشة وجميلة . . أتبدين هكذا دائماً حين تستيقظين ؟

ـ أحاول .

ـ وتنجحين . ولسوف تنوّرين حياة زوج يوماً ما .

صبت لنفسها القهوة .

ـ الطقس أروع من أن أبقى في المنزل . . وسأستفيد ما أستطيع من هذا الطقس الجميل .

ـ وما الذي ستفعلينه اليوم؟

ـ لست أدري . . لم أفكر بالأمر .

ـ عظيم . . يمكن أن نخرج في نزهة راكبين.

ـ راكبين ؟ .

ـ تعلمين . . على ظهور الخيل .

www.elromancia.com

ـ اعلم . . لكنك تعرف أن الفكرة لا تعجبني نيل . . لم أكن يوما بارعة ، ولست أرغب في المحاولة مجدداً .

ـ أوه . . ستكونين رائعة معي .

ثقته المتعجرفة بنفسه كانت تبرز نفسها كجزء لا يتجزأ من شخصيته . . . وملعونة لو تركت نفسها تنجرف وراءها :

ـ لست واثقة . على كل ، لا أريد الذهاب . . . ومن العقم محاولة خلق فارسة مني يا نيل .

ظهرت الضحكة المحتمة :

ـ بامكانك على الأقل أن تحاولي . . . كنت جريئة أكثر وأنت صغيرة .

ـ لا نيل . . لن أستطيع .

ـ بالطبع تستطيعي . . ولو لمجرد إرضائي . . كنت تفعلين هذا فيما مضى . . لمجرد إرضائي . . !

هزت رأسها ساخطة :

ـ أعرف هذا . لكن الأمر مختلف الآن . . وأنا . .

ـ لا تهتمين أرضيتني أم لا . . هه؟ كما أنك . . . خائفة!

ـ صحيح . . أنا خائفة ولن يقنعني شيء على ركوب ظهر جواد .

ـ أبداً؟

ـ أبداً!

ـ حسناً . . على الأقل حاولت . أنا ذاهب إلى مزرعة بايتس هذا الصباح ، وأردتك المجيء معي .

قطبت إيلثيا ، بعد أن ضرب الاسم وتر ذكرى في رأسها!

ـ بايتس؟

ابتسم بخبث لشدة اهتمامها :

ـ أتذكرينهم؟

ـ أجل . . على الأقل أظن هذا . . ألم يكن هناك داروين بايتس؟

ضحك :

ـ اسمه دايفد بايتس ، وهو يتذكرك جيداً .

ـ صحيح . . أظنني أذكره كذلك .

ـ مسكين دايف . . . سيتألم جداً لو عرف أنك نسيته .

ـ لقد مرّ زمن طويل . . ولا يمكن أن تتوقع مني أن أذكر الجميع . .

ـ وهو معجب مخلص كذلك . . . ومن الجيد أنني لم أحتفظ بذكرى تعلقك الطفولي بي .

ردت بلذاعة :

ـ وأتمنى من السماء لو أنك تذكر . . لقد سئمت من تذكيرك لي كم كنت حمقاء منذ سبع سنين .

ضحك :

ـ أتساءل ما سيظن دايفد بايتس بك الآن!

ـ لن أذهب معك . . إذن من المستحيل أن تعرف . .

ـ كنت أفكر . . قد تكون فكرة جيدة لو تجعلين نفسك نافعة وأنت هنا . . . ولو درّبت الأغبر لي . . فستكوني بالفعل نافعة .

ـ لا أفهمك . . أتظن حقاً أنني يجب أن أفيد بشيء هنا؟

ـ هذا إذا كنت تريدين التأثير على أبي . . إنه يحب العمل .

ـ أنا لا أحاول التأثير على العم والتر . ليس بكل تأكيد للأسباب التي تعنيها . لكن إذا كنت تعتقد أنه يتوقع مني كسب معيشتي هنا . . فأنا مستعدة تماماً للقيام بأي عمل ضمن المعقول .

ـ السيدة موبرلي لن تنظر بعين الرضى لمساعدتك لها في البيت . . وهذا يترك الاسطبل . . مجرد تدريب للجياد . . ليس بالعمل الشاق .

www.elromancia.com

ساد صمت طويل، لاحظت خلاله أنها علقت في موقف كانت مصممة على اجتنابه، كما أنها غير واثقة أن هذا مجرد خدعة من نيل. . لكن السير والتر ترانغ شخص معتمد جداً على نفسه بالرغم من قراره، وقد لا يكون له صبر على من لا يفعل شيئاً لكسب معيشته .

وتنهدت :

ـ حسن جداً . . سأركب جوادك لأجلك . . . لكن ليس وأنا في هذه الملابس .

ـ صحيح . . . سيكون البنطلون عملياً أكثر .

كان ينتظرها في البهو حين نزلت ليقول لها بمرح :

ـ تبدين لذيذة . . أجمل الجميلات .

ـ ما عدا أنني سأعمل سائسة خيل بدلاً من ساندريلا .

ـ من الأفضل أن تدخلي وتخبري أبي . . سيحب أن يعرف .

نظر العجوز إليها بحدة وهي تدخل يلحق نيل بها . . وقالت دون مقدمات :

ـ أنا مقيدة بركوب أحد جياد نيل . . على الأقل سأحاول .

ـ عظيم . . عظيم . . أحب رؤية الفتاة المقيدة . . الكثير من الفتيات يجلسن دون عمل هذه الأيام .

ـ على الأرجح سأبرهن أنني حمقاء .

ـ أنت فتاة جميلة .

ـ شكراً عمي والتر .

ـ أواثقة أن ليس هناك شاب جميل ينتظر الزواج منك في لندن ؟

ـ لا شيء جدي عمي .

ـ همم . . . باللأغبياء الملاعين .

وسمعت نيل يضحك . وأكمل العجوز :

ـ حسناً . . سيتحلقون حولك كالنحل حول القفير حين تصبحين ثرية . . لذلك من الأفضل أن تنتقي رجلاً موسراً مثلك . . عندها ستعرفين دافعه للزواج منك .

ـ لكن . . عمي والتر . . .

لوح بصمتها بيد معروقة نافذة الصبر، ونظر إلى نيل .

ـ احرص على أن لا تقوم بالكثير من العمل في البداية . واعتني بها جيداً .

أحست، وكأن الاثنين يحاورانها نحو شيء لم تدركه بعد . فقالت وهي تتوجه إلى الباب قائلة :

ـ لست بحاجة لمن يعتني بي . أنا قادرة تماماً على العناية بنفسي!

همس وهو يبعدها :

ـ لم أكن أفكر بأن أعاملك كطفلة . . ولا تفسدي لنا رياضتنا .

ـ أنا لا أفسد شيئاً لأحد، لكنني لست بحاجة إلى وصيّ، وآخرهم أنت .

ركبا معاً ببطء خارج سياج الزرائب، حين وصلا إلى آخر السياج الخشبي، كانت إيلثيا على استعداد للعودة، مع أنها كانت قد اكتسبت الثقة بنفسها . . لكن قبل أن تستدير، أمسك نيل بالرسن وأوقفها .

ـ بامكانك متابعة الطريق إلى مزرعة بايتس، بعد أن وصلت إلى هنا دون حادث يذكر . . . أنت جيدة جداً إلثي .

ـ لست جيدة كثيراً . . وأفضّل العودة .

ـ أوه . . هيا أيتها الجبانة . . خاطري !

ـ لا . . لا نيل !

لكنه ضرب الأغبر على ردفه بعد توجيهه إلى العراء، فتمسكت إيلثيا بالركاب والرسن يائسة محاولة أن تتذكر ما علمه نيل لها كي تتعامل مع

جري الجواد. والأغبر لم يكن يجري بأكثر من جري خفيف عادي، لكنه بدا لها وكأنه القطار السريع الخارج عن السيطرة، وارتفع شعرها بجنون فيما لعبت به الريح.. وصاحت:

- نيل!

سمعت وقع حوافر جواده إلى جانبها دون أن تجرؤ على الالتفات إليه وسمعته يصيح بها!

- اجلسي مستقيمة وتمسكي.

كانت الطريق تنحدر بها إلى الأسفل نحو ساقية بعيدة، تذكر يوماً أن الجواد ألقاها فيها، أصعب مرحلة كانت لها والجواد يهبط، وأدركت متأخرة معنى صياح نيل التحذيري، ولم تدرك إلاّ وقد طارت من فوق رأس الجواد، ذراعاها ويداها تتطاير في الهواء بطريقة خرقاء، ولم تكن الساقية الآن أعمق مما كانت يوم وقعت فيها المرة الماضية، لكنها كانت عميقة ما يكفي لينتشر الماء حولها ويبلل كل ثيابها في وقت قصير، للحظات كانت مصدومة دون حراك، أول شيء أحست به سماع صوت نيل إلى جانبها يصيح بقلق، لكن بشكل غير معقول.. مع قليل من الضحك:

- إلثي.. أوه.. إلثي.. جميلتي.. أنت غير معقولة أبداً!

- لا تجرؤ على الضحك مني.. وإلاّ.. سوف..

جذبها لتقف وسأل:

- وإلاّ ماذا؟.. لم تصابِ بأذى إيلثيا، أليس كذلك؟

- لا.. لا.. أنا على ما يرام.. مع أن الفضل لا يعود إليك!

ضحك، وتجعدت زوايا عيونه المرتفعة من الجوانب، ثم ضمها للحظات:

- كنت أعلم أنك ستقعي.. أوه.. ثيابك مبللة!

- طبعاً.. وماذا تتوقع؟

- إنه يوم حار.

نظرت إليه ساخطة:

- وما دخل هذا بهذا.

- ستجففك الشمس سريعاً.

- أووه.. أيها الوحش الفاقد للشعور..! أهذا كل ما عندك لتقول؟

وضعت يدها على مؤخرة البنطلون المبللة أكثر، ثم نظرت إليه غاضبة.

- ما حدث كان غلطتك.. لقد ضربته ليجري مع علمك أنه سيرميني.

- لم يرمِكِ. الأغبر لم يرمِ أحداً عن ظهره في حياته.. أنت وقعت، فلم تتذكري أن تجلسي ظهرك إلى الوراء كي تتوازني.. وصرخت أحذرك؟

- لم أعِ ما كنت تقول إلاّ متأخرة، قلت لك أنني لست فارسة.. سأعود الآن.

- لكننا نكاد نصل.

أتتصور أنني سازور أحداً وأنا هكذا؟ ساعود نيل.. صمتت فجأة حين أدركت أن أحداً ينضم إليهما.. ونظرت بفضول وهي تنظر إلى الرجل الطويل الأشقر المتقدم نحوهما بسرعة كاملة. وسأل حين أصبح على مرمى السمع:

- هل السيدة مصابة؟ شاهدت الوقعة عن بُعد.

ترجل عن جواده وتقدم نحوهما بينما ابتسم نيل:

- أهلا دايف.. لقد حصلت إيلثيا على حمام إضافي هذا الصباح.

ظهرت على عيني الغريب الرماديتين الفضول المهزّ:

www.elromancia.com

- إذن أنت إلثي . . آنسة ترانغ؟ أنا دايفد بايتس . . ولا اعتقد أنك تذكريني .

ابتسمت محاولة نسيان بللها . . الولد الرفيع الطويل الذي بالكاد تتذكره بشعره الأشقر المغاير تماماً لشعر نيل، أصبح كبيراً وجميل الطلعة . عيناه كانتا تنظران إليها بإعجاب أنساها ما حصل لها ووجدته أقل احراجاً لها . وقالت :

- بالطبع أذكرك سيد بايتس .

رد بابتسامة فاتنة :

- كم أرضيت غروري ! لكنك مبتلة جداً . . أرجوك، تعالي معي إلى منزلي لتجففي نفسك . .

- أوه . . لكن . .

- أرجوك . . المسافة قصيرة من هنا . . ثم كنت قادمة مع نيل . . أليس كذلك !

نظرت إلى نيل نظرة ذات معنى :

- هذا كانت فكرته . . وليست فكرتي .

رد دايفد متجهماً :

- أوه . . أنا آسف لسماع هذا . . كنت أتشوق لرؤيتك مجدداً .

سارعت تشرح !

- لم أقصد ما فهمته . . أعني أنني كنت أعرف حدودي في ركوب الخيل، لكن نيل ضرب جوادي ليجري، ولم يعد لي خيار . . وهذا ما أوصلني إلى الوقوع .

رد نيل بإصرار :

- كان توازنك سيئاً . . والأغبر لم يركض، بل كان يسير بسرعة قليلة .

رد دايفد مقطباً :

- وإن يكن . . من الخطر أن تفعل ما فعلت وأنت تعرف أنها لا تجيد الركوب .

ضحك نيل :

- لكنها كانت على ما يرام حتى آخر مرحلة من المنحدر . . لم تتوازن جيداً فوق السرج .

ساعدها نيل لامتطاء الجواد مرة أخرى، وتجاهلت نظرته الساخرة يرمق بها الرجل وهو منخفض الرأس ويقول هامساً :

- لا تزال عينه عليك .

لكنها تجاهلته ورفعت رأسها بكبرياء .

كان منزل مزرعة آل بايتس أصغر من منزل مزرعة «رايفن هال» . لكن، كان له سحر خاص ظنته إيلثيا غريباً لكن جذاباً . على عكس رايفن هال، كان المنزل مركز عمل لا تهذبه الحدائق، بل بضع شجرات ظليلة في مؤخرته . وأدخلهما مضيفهما إلى مطبخ منخفض السقف، حيث نظرت سيدة متوسطة العمر إلى إيلثيا، وهي تهز رأسها باستجابة صامتة إلى تحية نيل .

وقال دايفد معتذراً :

- اخشى أن لا أستطيع توفير بديل لملابسك، فهذا منزل لا نساء فيه حتى السيدة ستان مدبرة المنزل، لا تنام هنا . . بإمكانك تجفيف ثيابك بينما آخذ نيل لرؤية الفرسة التي جاء لرؤيتها ثم نتناول القهوة معاً .

- هذا لطفك منك . . لكنني سأكون بخير، ستجف ثيابي قريباً .

- لا . . لا . . أنا مصرّ . . فقد تصابين بالزكام إذا لم تخلعيها بسرعة سأحضر لك بطانية تلفين بها نفسك ثم تجفف السيدة ستان لك الملابس في الشمس .

www.elromancia.com

مرت على إيلثيا ربع ساعة تجلس بارتياح، تلف جسدها من الأسفل بالبطانية الحمراء التي جاءها بها دايفد حين سمعت صوت سيارة تتوقف في الخارج . . يا الله، كم ستحس بالحرج لو دخل أحد إلى هنا ليراها هكذا ! وسمعت صوتاً أنثوياً يسأل مدبرة المنزل . . ولم تفهم من الحديث سوى كلمة «سأنتظر» وانفتح الباب لتدخل الزائرة .

وقفت الفتاة بالباب لحظات تعود نظرها على العتمة النسبية بعد نور الشمس . . ثم تقدمت بحيرة نحو إيلثيا . . يبدو أن مدبرة المنزل اعتبرت أن ليس من شأنها تقديمها إلى بعضهما ، واختفت في المطبخ . فقالت إيلثيا :

ـ مساء الخير .

كانت المرأة طويلة، أطول من امرأة عادية، وبدا شعرها أبيضاً في البداية داخل عتمة الغرفة، لكنه في الواقع كان أشقر . . نظرت إلى إيلثيا بعينيها اللوزيتين الفاتحتين وردت بدهشة :

ـ مساء الخير .

ـ لقد حصل لي حادثة مؤسفة . . أوقعني جوادي في الساقية، والسيدة ستان تجفف لي ملابسي .

استمرت الفتاة تتفرس فيها بفضول وحدة :

ـ اه . . فهمت . . وهل أنت صديقة للسيد بايتس ؟ .

ـ اوه . . لا . . أعني لسنا أصدقاء فعلاً . . فقد قابلته منذ سبع سنوات حين أقمت في رايفن هال، ولم أره منذ ذلك التاريخ .

ـ رايفن هال؟ اتقيمين هناك؟

ـ أجل . . فالسير ترانغ هو عمي الأكبر .

ـ إذن لا بد أن تعرفي . .

وتطلعت عيناها الحادتان خارج النافذة ثم سألت :

ـ هل نيل هنا أيضاً ؟

ـ إنه مع السيد بايتس في الحظيرة . . إنهما . . .

ـ مرحباً تريس .

استدارت المرأة بسرعة كادت توقعها، وابتسامة ترحيب على وجهها لواحد على الأقل من الرجلين الداخلين إلى الغرفة . . اهتمامها بنيل واضح جداً . . واتجهت إليه حيث كان يقف قرب دايفد بايتس . . وصاحت متجاهلة مضيفها :

ـ نيل ! لم أتوقع رؤيتك هنا . . جئت لرؤية دايفد و . . إنني لم أرك منذ أجيال حبيبي .

رد نيل ببرود :

ـ هذا صحيح . . ومنذ أن قررت تجربة الحياة في المدينة . . مبهج أن تعودي تريس . هل التقيت مع إيلثيا ؟

ـ لا . .

كان يبدو على كلامها عدم الإكتراث، لكن نيل تجاهلها !

ـ إيلثيا . . هذه تريستا ماك كري . . تريس هذه إيلثيا ترانغ . . يمكنك القول إنها ابنة عمي، بطريقة ما، أنها ابنة ابن أخ أبي بالتبني .

ـ هذا ما سمعته قبل أن تصل .

سألها دايفد بايتس بهدوء :

ـ أظنك عدت للبحث معي بأمر المكتبة، أليس كذلك تريستا؟

هزت رأسها :

ـ صحيح . .

ـ حسناً . . تعرفين سعرها، ألا زلت مهتمة؟

ـ طبعاً . . ألن تخفض السعر؟ حسناً . . أعتقد أنني سأضطر لدفع الثمن الذي تطلبه . . لكنك صعب في المفاوضة، أليس كذلك؟

ـ أنا رجل أعمال تريستا، ومزارع كذلك، ولي هواية غالية الثمن .

ـ أنت وسياراتك! لست أدري لماذا تبيع كنوزك لتدفع ثمنها؟

ضحك نيل :

ـ دايف لا يهتم كثيراً بما تسمينه أنت كنوز . . أنت تهوين الأثاث الجميل الأثرى كما يهوى هو السيارات السريعة .

اعترفت المرأة، وهي تلف أصابعها على ذراع نيل :

أحب الأشياء الجميلة . . وأنا عادة أحصل على ما أريد . . أليس كذلك حبيبي؟

ابتسم بخبث نحو إيلثيا :

ـ عادة . . لكنني لو كنت مكانك لا أعتمد على هذا دائماً . . حبيبتي!

٣٠

بكت على كتفه .. صدفة .

فوجئت إيلثيا بعد يومين لاستلامها دعوة للعب التنس في منزل تريستا ماك كري، مع أنها عرفت أن الدعوة شملتها كي تحضر مع نيل .

هز نيل كتفيه للدعوة مبتسماً، مما أثار أعصاب إيلثيا .

ـ مما شاهدته منكما، أعتقد أنها اهتمام خاص بك .

ـ ليس لها أي اهتمام خاص بي . . فهذا يعني التملك، وأنا لست ملكاً لأحد باتي . . ليس بعد .

أنقذها من التفتيش عن رد مناسب تدخل عمها .

ـ تريستا ماك كري، تشبه أمها تماماً . . تعرف ما تريد تماماً ولا يوقفها شيء عن الحصول عليه .

ـ أكنت تعرف أمها عمي؟

رد العجوز :

ـ أعرف أخبارها . . فعائلتا ماك كري وبرنتس عاشتا في المنطقة منذ زمن بعيد، لوسي برنتس كانت امرأة تعرف ما تريد، ولقد صممت على

www.elromancia.com

الحصول على جون ماك كري منذ كانت فتاة صغيرة. وتزوجته في النهاية، ولقد كان شاباً ثرياً جداً، ووالدها كان ينهب القرية. لقد وضعت نصب عينيها أن تتزوج المال. وابنتها مستعدة لفعل المثيل، إلاَّ إذا كنت أسيء الحكم عليها.

ضحك نيل دون أن يظهر عليه الاضطراب لهذا الاتهام:

- إذا كانت هكذا يا أبي.. فهي بكل تأكيد بعيدة عن الهدف في الوقت الحاضر.

رد العجوز:

- إذا كانت عينها عليك، فهي ليست بعيدة عن الهدف.. ستكون ثرياً بعد أن أموت.. ولا بد أنها تعرف هذا.

ضحك نيل:

- لا تقلق أستطيع معالجة أمرها..

- أرجو هذا.

التفت نيل إلى إيلثيا:

- وماذا عنك إلثي.. هل ستذهبين إلى لعب التنس وشرب الشاي عند تريستا ماك كري؟

كادت تضحك:

- تصف الأمر وكأنه عائد للعصور الوسطى.. وسأذهب لمجرد الفضول.

- ولرؤية دايفد بايتس ثانية!.

نظرته تحدتها أن تنكر، فرفعت رأسها مبتسمة:

- طبعاً لأراه ثانية.. وأظنه جذاب جداً.

الفستان الأبيض القصير، كان يكشف ساقيها تماماً، ويترك ذراعيها معرضان للشمس التي أملت في أن تسعفها وتعطيها اللون الأسمر عما

قريب.. شعرها القصير ربطته بشريط حريري أكسبتها مظهر الفتاة الصغيرة.. حتى أن نيل علق حين كانا يغادران المنزل على مظهرها المدمر.. تعابير وجه دايفد كانت تؤكد رأي نيل، واستبقى يدها بيده أكثر من اللازم.

- تبدين جميلة بشكل لا يصدق... جميلة لدرجة أنني...

وصمت، كأنه كشف أكثر مما يريد من نفسه.

- آسف.. إلثي.. لا يجب أن أتكلم معك هكذا وبعد تعارف قصير.. ستظنين أنني...

لم يكمل الجملة بل نظر إلى نيل، فابتسمت إيلثيا!

- إنك سيء مثل نيل؟ أرجوك لا تعتذر دايفد... ما من امرأة تنزعج لأن يُقال لها كم هي جميلة.

- وأنا أعني ما أقول تماماً.. كنت دائماً أفكر كم أنت جميلة... إلثي..

ابتسمت له، ووبخت نفسها فوراً للمقارنة بينه وبين نيل.

- كان تعلقك به واضح، ولقد كرهته في البداية.. فهو جذاب جداً، ويستغل هذا، ولا استطيع لومه.

- وكيف يستغل هذا؟

هز كتفيه:

- أوه.. تعرفين كيف.

ملعب التنس كان جميلاً.. جمال الحدائق كان ينبيء أن تريستا ليست بحاجة لأن تتزوج لأجل المال، فهي ثرية بما يكفي. تقدم نيل يهمس في أذن إيلثيا.

- مستعدة؟

- أرجو أن لا أخذل الجميع.

www.elromancia.com

ـ الأفضل لك أن لا تفعلي . . وإلاّ سأرفض أخذك معي إلى أي مكان .

كانت سترد رداً ساخطاً، لكنه كان قد ابتعد عنها . لكنها شاركت دايفد في لعبة مزدوجة، والذي كان لاعباً قوياً ماهراً . لكنه لم يكن خبيراً . . وأحست بخيبة حين أدركت كم اتعبتها اللعبة . قدمت أفضل ما لديها من مهارة . . وتبين بسرعة أنها ودايفد ليسا ندين للاعبين أفضل منهما .

في الشوط الثالث قال لها دايفد :

ـ يجب أن نكسب هذه الجولة وإلاّ فلن نربح شيئاً . . وبدأت اؤمن أننا لن نربح .

وكم كان محقاً . . ولم تستطع إيلثيا إلاّ أن تحس أن الخسارة كانت بسببها، وأحست بالكراهية لتفوق نيل عليها .

استقرّ الأربعة تحت ظل الأشجار ليتناولوا شاياً انكليزياً تقليدياً . . . وأحست إيلثيا أنها عادت إلى القرون الماضية، مقطوعة عن العالم الحاضر . . ما عدا أن ثلاثة شورتات، إضافة إلى تنورتها القصيرة أفسدت وهمها هذا .

بعد الشاي قرر نيل مشاركة إيلثيا، وبدأت الأمور تسير إلى الأسوأ، وتغير جو الصداقة، حتى أنها تساءلت لماذا اختارها شريكة في وقت يعرف تماماً تأثير هذا على تريستا . لكن جو التوتر هذا جعل من لعبها أسوأ مما كان .

همس لها بعد ردة سيئة :

ـ لعبة مماثلة وساضربك بالمضرب على قفاك .

نظرت إليه زاجرة :

ـ ابذل جهدي !

وكانت الكرة التي أرسلتها تريستا من القوة بحيث اضطرت إلى القفز لردها، وبالتالي سقطت وقدمها تحتها . . في لحظات كان نيل يركع إلى جانبها يسحب قدمها الملتوية، وظهر عليه القلق، لكنها أقنعت نفسها أنه مهتم بضياع اللعبة أكثر . أمسك بها بحيث لا تقدر أن تسير على قدمها ولو أرادت، ثم أمسك بالقدم المصابة :

ـ أتؤلمك كثيراً ؟

ـ أجل . . وكأنها تُقطع بالسكين .

هز رأسه وكأنه يتوقع هذا . وبدأ كأنه يعرف تماما ماذا يجب أن يفعل . . وقال لها :

ـ إذن يجب أن لا تقفي عليها .

كانت تريستا تقف جانبه وفمها مكوّز . . بينما ركع دايفد للجهة الأخرى من إيلثيا، لكن دون أن يعرف ماذا يفعل ليساعدها . وقال :

ـ أليس من الأفضل أخذها إلى طبيب ؟ . . أظنها بدأت تتورم .

ـ أحست بأصابع نيل رقيقة حول كاحلها .

ـ ألا يمكنك تحريكها؟ حاولي . . أعلم أنها تؤلم، لكن حاولي .

ـ سأحاول . .

وشهقت . . لكنها تمكنت من تحريك قدمها . ولاحظت هزة رأس نيل الراضية بمشاعر مختلطة . فقالت :

ـ أنا مسرورة لرضاك .

ـ أنا راضٍ لأنها لم تكسر . . كمادة باردة ستخفف من الألم ثم حين آخذك إلى المنزل سافعل شيئاً يصلحها في وقت قصير جداً .

قال دايفد قلقاً :

ـ أعتقد من الأفضل أن يراها طبيب .

ردت تريستا بحدة باردة :

ـ لا أوافقك . . إنه مجرد التواء، ولا شيء يستدعي هذه الضجة .

واستدارت مبتعدة، واضح أنها مستاءة لافساد اللعبة . . ولتجد إيلثيا نفسها محمولة وكأنها طفلة، فلفت ذراعها حول عنق نيل وهو يحملها. وقالت محتجة :

ـ أستطيع أن أسير . .

قاطعها نيل :

ـ لا تكوني حمقاء . . لا يمكنك السير على هذا الكاحل الملتوي . . فاهدأي واستخدمي رأسك، ثم لا تضربيني بقبضتك، وإلاّ انتهى بك الأمر على ركبتي لأضربك على قفاك! .

في الطريق، وهي إلى جانبه في السيارة، قالت :

ـ أسفة لافسادي يومكم .

ضحك :

ـ يبدو أنك مصممة على أن لا تعودي إلى المنزل إلاّ وأنت في أسوأ حال .

ـ لا أظن هذا مضحك نيل . يبدو أنني أتصرف كالحمقاء وأنا معك . ولا أظن هذا مضحكاً .

ـ أتعني أن هذه غلطتي ؟

ـ لا . . . بالطبع لا !

ـ ساضطر أن أعتني بك أكثر وإلاّ سأجد أبي في اعقابي .

أحمرّ وجهها للإشارة بأنها غير قادرة على العناية بنفسها :

ـ قلت لك نيل . . لا أحتاج إلى وصيّ، وأقله أنت .

ـ أذكر هذا، لكن، بعد ظهر اليوم، ثبت كم أنت مخطئة .

ـ لكنني لست طفلة . . الأمر أنني لست من النوع الرياضي . . هذا كل شيء .

رد عليها مقطباً :

ـ هذا واضح . . واعتقد أنني لا يجب أن أمازحك هكذا بعد الآن .

أكملا الطريق بصمت، فهي لم تجد كلمات ترد عليه بها . . لكن حين وصلا إلى باب المنزل، وجدت الشجاعة لترد :

ـ أنا . . لا أمانع في مزاحك معي نيل . . واعتقد أنني . . حساسة أكثر من اللازم أحياناً . . . لكنك دائماً . .

صمتت تعض شفتها . . أوقف السيارة، ثم حملها، فأصبحت قريبة منه بما يكفي لرؤية خطوط جوانب عينيه الغامضتين . . فهمست :

ـ نيـل ؟

ـ هـمم ؟

ـ أنت لا تلومني على ما حدث اليوم . . . صحيح ؟

ابتسم، قربها منه مكنها من رؤية بريق الضحك حين نظر إليها :

ـ طبعاً لا . . لم يكن بمقدورك منع نفسك من الوقوع .

بدت الدهشة على العم والتر لرؤيتهما عائدين إلى المنزل باكراً. وأبدى أسفه على سوء حظها . . وقال لها حين ذهب ربيبه لاحضار شيء أكد لها أنه سيريح الألم سريعاً :

ـ الأفضل أن تتركي أمر علاجك له .

ـ يبدو أن لا خيار آخر عندي .

ـ هذا صحيح يا فتاتي . . لا خيار آخر .

ما هي سوى دقائق وعاد نيل يحمل مرطباناً زجاجياً صغيراً بدا لها أن فيه نوع من المراهم . رائحته كانت قوية، وملمسه على بشرتها ساخنة . . . وجلس قربها على الأريكة، وتساءلت ما هي هذه التركيبة السحرية الواثق منها إلى هذه الدرجة . . أصابعه كانت قوية رقيقة حين بدأ يفرك لها كاحلها بالمرهم الزيتي . . ثم سأل :

www.elromancia.com

ـ كيف تشعرين ؟

ـ أفضل بكثير . . كما أظن .

ضحك :

ـ سرعان ما تشعري بالفائدة . . . فهذا دواء رائع .

ـ لكن رائحته رهيبة . . . ما هو نيل ؟

لكنه لم يرد . . بل ابتسم بخبث، مما دفعها إلى إعادة السؤال فرد عليها مراوغاً :

ـ شيء سيفيد كاحلك . ما عدا هذا لا شيء يهم .

نظرت إلى عمها الكبير، لتفاجأ بلمعان ضحك في عينيه الزرقاوين الضعيفتين، فتوسلت إليه :

ـ عمي والتر . . ماذا وضع على كاحلي ؟

رد العجوز :

ـ مرهم لمعالجة الخيول . . لكن لا تقلقي . . إنه نافع جداً للبشر أيضاً .

نظرت إلى كاحلها اللماع برعب ، ثم إلى نيل :

ـ مرهم للخيول؟ لكن . .

رد نيل :

ـ لكن لا شيء . . لقد استخدمته بنفسي يوم أصيب معصمي . . ولم يضرني بشيء .

ـ حسناً . . أرجو هذا . . لا أحب التفكير بأنك تعاملني كالأغبر مثلاً أو أي جواد لديك . . اعتقد لو أن قدمي انكسرت لاطلقت النار عليّ! .

وقف وعيناه تلمعان خبثاً، ورد برزانه :

ـ هذا جائز . . فهو أكثر رحمة على المدى الطويل .

لم تكن مفاجئة لها أن يحضر دايفد بايتس بعد ظهر اليوم التالي

لزيارتها . . واستقبلته ببهجة لاحظت أنها لم تعجب عمها . بينما رفع نيل حاجبيه وابتسم .

ـ بعد التحية، قال لها دايفد :

ـ أرجو أن لا أكون قد قاطعتكم في شيء . . لكن بما أنك غير قادرة على التجول سيراً . . فما رأيك لو تأتين معي في نزهة بالسيارة ؟

ازداد عبوس العجوز وهو ينتظر سماع رد إيلثيا .

إلثي ردت بحبور :

ـ نعم ساحب أن أذهب معك دايفد . . شكراً لك .

لكن العجوز سأله بجفاء :

ـ في أحد وحوشك الصاخبة ؟

ـ صحيح أنها سيارة سريعة سير والتر . . لكنه على الأقل آمنة . . . وأعدك بهذا .

ردد العم دون اقتناع .

ـ همم . . السيارة آمنة بقدر ما هو سائقها . . وابنة أخي مصابة بالتواء كاحلها . . ولن أتحمل أن تعيدها إلى المنزل وبها إصابة أخرى .

بدا القلق على دايفد :

ـ أوه . . . لا . . بالطبع لا سير والتر . . اؤكد لك أنني سائق حذر . . . وسأكون فائق الحذر وإيلثيا معي .

اعترضت إيلثيا :

ـ أوه . . عمي والتر : أنا واثقة أنه سائق ممتاز، ولا حاجة للقلق . ويمكنني الاستفادة من تغيير الهواء والمناظر . .

والتفتت إلى دايفد :

ـ الطقس دافيء ولا حاجة للمعطف . . اترك لي وقتاً كي أقفز على قدم واحدة حتى السيارة .

www.elromancia.com

- ألا يمكن أن أحملك ؟

- لا . . يمكنني الوصول لوحدي . . شكراً لك .

لكنها لم تخطُ خطوة أخرى حتى أحست أنها ترتفع عن الأرض لتحمل إلى الباب فصاحت :

- نيل ! . . نيل ! انزلني . . أستطيع السير !

- قلت لك أن لا تستخدمي قدمك لبضعة أيام . . . لكن القول وحده مضيعة للوقت معك . . أليس كذلك؟

لفت ذراعها حول عنقه وتابعت الاحتجاج :

- أرفض أن تقول لي ما أفعل ! استطيع تدبير أمر نفسي !

ضحك :

- وتأخذين الليل كله لتصلي إلى الباب .

- أوه . . هكذا إذن؟ لا تطيق الانتظار لتتخلص مني . . أهذا ما تقصد ؟

قطع بها الردهة، يلحق بهما دايفد الذي بدا وكأنه ينظر إلى ما يجري باشمئزاز . . وأجابها نيل ضاحكاً :

- شيء من هذا القبيل .

- أحياناً أكرهك .

لكنها لم تستطع كبح ابتسامتها . فرد عليها :

- أنت تستحقين أكثر من هذا لرفضك الخروج معي أتذكرين ؟

والتفت إلى دايفد :

- أين تريد أن أرميها دايف . . في الصندوق ؟

ردت بذعر :

- لن تجرؤ على هذا !

سارع دايفد بفتح باب السيارة وكأنه يخشى أن ينفذ نيل ما قاله . .

وأنزلها في المقعد الأمامي . . وهي تسحب ذراعها من حول عنقه، لامست شفتاه خدها بنعومة ودفء قبل أن يتركها، وهمس غامزاً بخبث :

- فلتكن رحلتك ممتعة .

ردت بحزم :

- ستكون . . ولا تنتظر عودتي بسرعة !

كان الريف قد بدأ يتغير بعد فترة حرّ طويلة . . لكنه لا زال جميلاً، وتغيير رائع عن مناظر المدينة التي اعتادت عليها . وتمتعت إيلثيا بسرعة انطلاق السيارة، والريح تعبث بشعرها، وتلفح وجهها لتزيده إحراراً . صحيح أن السيارة كانت تسير بسرعة إلاّ أنها كانت تعرف أنها أقوى من هذا وأن دايفد قادر على قيادتها بسرعة أكبر .

وتذكرت، تبادله الكلام اللاذع مع تريستا حول السيارات المكلفة، ووجدت صعوبة في فهم طبيعة دايفد مقارنة بالقليل الذي تعرفه عنه . . . وسألها فجأة :

- أتودين التوقف في مكان ما لفترة قصيرة ؟

ابتسمت :

- همم . . ولمَ لا ؟ إنها أمسية رائعة .

- اتفضلين الوقوف في مقهى أم في مكان هنا في العراء ؟

نظرت إليه قبل أن ترد .

- مكان هنا يناسبني أكثر . إذا كنت لا تمانع .

هز رأسه، وانعطف بالسيارة إلى فسحة معشوشبة مرتفعة، تعطي منظراً رائعاً للريف حولها . . ثم مد يده يفتح الباب ليدخل المزيد من الهواء . . . وقالت له :

- لم تكن واثقاً ما إذا كنت أوافق على الوقوف هنا وسط الحقول

www.elromancia.com

معك . . أليس كذلك ؟

ـ وما كنت لألومك لو رفضتي . . . فهذا موقف أصبح قديم الطراز . .

ـ أظن هذا .

نظرت إلى الخارج نحو ظلال الوادي المتطاولة في الأسفل وأحست فجأة برومانسية المكان . كان الريف هناك جميلاً وهما لا بد يبعدان أميالاً عن أي مكان . . صحيح أن الموقف كما قال دايفد ، قديم الطراز . . ومامن شك أن نيل كان سيستفيد منه بشكل آخر مختلف عن دايفد . . نيل . . ! وبخت نفسها بحدة لتركها نيل يتدخل فيما حولها الآن . . لكن دايفد أكد لها أن أفكاره متماثلة مع أفكارها حين قال :

ـ أعتقد أن نيل كان سيستفيد من هذه الفرصة . .

وعبست إيلثيا . . يبدو أن نيل مقدر له إن يلاحقها في كل مكان . وحاولت تغيير الموضوع !

ـ لا أعرف ما كان يمكن له أن يفعل . . سأحب لو أنني استطعت الوصول إلى حافة المرتفع . . أيمكننا هذا ؟

خرج من السيارة في لمحة بصر . ولم يتردد سوى لحظة قبل أن يرفعها بين ذراعيه ، مع أنها احتجت . فقال لها :

ـ الأمان أفضل من الندم . ثم إنك لست ثقيلة الوزن .

وضعها برقة على قمة المنحدر العشبي وجلس بقربها . فأخذت تتنسم الهواء الدافىء الصيفي العليل وتبتسم .

ـ أنا لا أضجر أبداً من الريف . . خاصة بعد حياة المدينة .

ـ وهل ستعودين إلى المدينة ؟

ـ أعتقد هذا . . أجل . . عاجلاً أم آجلاً . على أي حال لست امرأة ثرية بعد . . واتمنى أن لا أصبح هكذا لفترة طويلة . . ثم أنا أحب عملي

ولو أنه ليس بالعمل المميز الكبير . . . فأنا مندوبة مبيعات في شركة تجارية .

ـ وهل تخليت عن عملك للمجيء إلى هنا؟

ـ في الوقت الحاضر . طلب مني عمي والتر أن أجيء للسكن معه لشهر أو شهرين . . وتصرفت باندفاع ، وقبلت دعوته . . فأنا دائماً متهورة . . كما أخشى . . كان يريد أن يتفحصني ، ويتأكد مني .

وضحكت؟ فبدت عليه الدهشة .

ـ يتفحصك ؟

ضحكت ثانية :

ـ صحيح . . ليرى ماذا سيحصل عليه مقابل ماله . . بطريقة ما .

ـ يا إلهي إيلثيا . . لقد إرتبت بشيء من هذا . . لكن كنت أظن نفسي مخطئاً .

ـ مخطىء؟ مخطىء في ماذا دايفد ؟

ـ سبب طلبك إلى هنا . . أتساءل كيف تكون له الجرأة أن يكون صريحاً هكذا .

ـ حسناً . . ولماذا لا يكون؟ أظن الأمر منطقي من وجهة نظره . مع أنني لم أنظر إلى الأمر هكذا في البداية .

ـ لكن . . . ألا تمانعي ؟

ـ لا . . لا أمانع . اعتقد أن هذا احتياط معقول نظراً لظروفه .

ـ لكن . . الأمر وحشي !

ـ لا أفهمك . . لماذا ترى الأمر مروعاً في أن يطلب عمي أن يعرف أي نوع من النساء أنا قبل أن يقرر ترك نصف ثروته لي . أراد أن يعرفني جيداً . . واستطيع فهم وجهة نظره .

ردد دايفد بذهول :

ـ يترك لك . .

ـ وما الذي ظننته الدافع دايفد ؟ . . . دايفد؟

ـ أوه . . لا شيء . . أنا آسف .

ـ لكن لا بد أنه «شيء» جدي جعلك تتكلم . . بغضب . . هكذا . اخبرني دايفد .

هز رأسه بعناد :

ـ لا . . أفضّل أن لا أفعل .

ـ أرجـوك !

صمت لحظات طويلة ثم رفع عينيه إليها :

ـ كان يجب أن أفهم كل شيء من كـلامك . . لكنني كنت أعتقـد أن عمك . . يخطط لك شيئاً .

ـ يخطط؟

ـ خطط لك ولنيل .

ـ لي ولـ . . . أوه . . لا !

ـ أرى الآن أنني مخطيء . . . وأنا آسف إيلثيا .

ـ أنت فعلاً . . مخطيء جداً .

أحست فجأة بقشعريرة برد تسري في جسدها، فتمسكت بيده، تفكر ما إذا كان مخطئاً حقاً . . أم أنها هي الساذجة التي لم تـدرك شيئاً من وراء دعوة السير والترلها .

في الصباح التالي، أحست بألم غريب تحت الرباط . خاصة بعـد أن حاولت بغباء استخدام قدمها وكادت تقـع من جديـد . . صحيح أنها لم تضطر إلى عمل شيء سوى الجلوس في المقعد طوال اليوم، إلاّ أن حرارة الطقس والألم دفعها إلى الإحسـاس بالبؤس حتى أنها بكت إشفـاقاً عـلى نفسهـا . . وفكرت أن تخـاطر وتـزيل الـرباط عن قـدمها لتعـرف سبب

الألم . . حين تم لها هذا، نظرت جزعة إلى قدمها المحمـرة . . الورم زال لكن الورم باق . . وبقيت عدة دقائق تنظر إلى القدم، ودمـوعها تنحـدر على خديها بصمت .

كانت لا تزال جامدة دون حراك حين دخل عمها، وتقدم ليضع يده على كتفها :

ـ إيلثيا . . ما بك يا فتاتي ؟

رفعت وجهها إليه :

ـ إنها قدمي . . انظر إليها !

حملقت عيناه الضعيفتان بها لحظات ثم هز رأسه :

ـ لا أستطيع رؤيتهـا جيداً . . لكن تبـدو لي ملتهبة . . ومن الأفضـل أن يراها نيل . فنظره أفضل من نظري .

ـ لا !

نيل كان آخر شخص ترغب أن تراه الآن .

ـ لا تكوني حمقاء يا ابنتي !

فاستكانت فوق الوسائد . . بعد لحظات سمعت أصواتاً في الردهة، ثم دخـل نيل . . ولم يقـل شيئاً حتى رفعهـا عن الكـرسي ليضعهـا عـلى الأريكة الطويلة ليجلس قربها، ثم سأل :

ـ والآن . . ما بك ؟

لم ترد عليه . . فرفع قدمها ينظر إليها بعناية :

ـ همم ! أمر رديء! مع ذلك، سأعالجها لك .

ما وضعه عليها هذه المرة، لم تسأله فيه . . فلقد لاحظت رائحة مطهر نظيفة معروفة لسعتها للحظات قبل أن يهدأ الألم . . لكن اشفـاقها عـلى نفسهـا كان لا يـزال في قمته حتى أنها لم تستـطع الكلام، واثقـة أنها قـد تبكي لو تكلمت .

www.elromancia.com

ـ هكذا أفضل؟ لم أكن أعرف أن جلدك سيكون حساساً للمرهم.
لكن كان يجب أن أخمّن... فميلك طبيعي لكل ما هو مؤذي.

عضت على شفتها لكلامه الفظ... وتدحرجت دمعتان كبيرتان على خديها.. وأحست به يتحرك... ليجلس أقرب إليها وامتدت يده الرقيقة تمسح شعرها عن وجهها، ثم تستقر على عنقها.

ـ إلثي.. لا تبكي!

ـ لا.. استطيع.. منع نفسي!

ـ سرعان ما تشفى.. أعدك.

ـ هذا.. ما قلته.. يوم وضعت المرهم.

ـ آسف إيلثيا.. لكن صدقاً لم أكن أدري أنه له تأثير على البشرة الحساسة.

ـ تبدو قدمي مرعبة! أوه.. أوه.. اللعنة! لا أريد أن أبكي!

ـ اه.. يا فتاتي المسكينة! أبكي إذا كان هذا يجعلك ترتاحين أكثر.

ـ لا.. البكاء.. لا يريحني.

ـ إذن توقفي عن البكاء حلوتي.

اسم الدلال الذي اطلقه بلهجة عميقة دافئة أرسل رعدة تحذير في أوصالها جعلتها ترفع رأسها، وتسند ذراعها على الوسائد، لتبتعد قدر ما تستطيع عنه. وتذكرت تلميح دايفد حول سمعة نيل، وحول خطط العم لها وله.. ولم تكن لديها الرغبة في أن تتورط عميقاً معه.. رفع حاجباه بدهشة:

ـ وماذا قلت الآن!

ـ لا شيء.. لا شيء إطلاقاً.. أنا آسفة.. لتصرفي كطفلة، لكنني أحس أنني أفضل حالاً الآن.. شكراً لك نيل.

ـ عظيم.. وفي أي وقت احتجت إلى كتف لتبكي عليه، نادني...

ـ سأذكر هذا.

ـ ماذا بك إيلثيا؟

ـ لا شيء.

هز رأسه باصرار:

ـ بلى.. هنا شيء.. في لحظات تكوني قانعة للبكاء بين ذراعي.. ثم تتصرفين وكأنك اعتزمته.. سمها ما شئت.. واريد أن أعرف سبب التغيير.

ـ لم أكن بين ذراعيك.. كنت متكدرة وبكيت.. وما تبقى حدث صدفة.. صدف أن كنت موجوداً.

ـ أوه.. هكذا اذن.. حسناً قيدي هذا على حساب نفس الصدفة.

ودون أن تشعر بما ينوي فعله، كانت بين ذراعيه يطويها في عناق حميم دافىء أشعل جسدها كله، قبل أن يتركها ضاحكاً ويغادر الغرفة.

www.elromancia.com

٤٠

الهـديـة !

لم يمضِ وقت طويل حتى كانت إيلثيا قد تمكنت من السير ثانية على قدمها المصابة. والجلوس طوال النهار لم يكن يناسب اطباعها وأصبح بإمكانها الآن أن تعود إلى طبيعتها حتى أنها توقعت أن تعود إلى مساعدة نيل في تدريب جياده.

سألها نيل وهما يتناولان الفطار :

ـ أتشعرين برغبة في ركوب الخيل هذا الصباح ؟

وابتسمت لاتفاق أفكارهما، فسألها بفضول :

ـ هل قلت شيئاً مضحكاً ؟

ـ لا .. بل أن المصادفة جعلتني أضحك.

ـ أية مصادفة ؟

ـ كنت أفكر بما سألتني إياه لتوك، وأنك ستعيدني كصبي اسطبل يعمل لك.

ـ صحيح؟ لكنني لم أجبرك على هذا العمل ..

ضحكت :

ـ هاه.. ! أود معرفة ماذا تسمي ما فعلت؟

ـ مجرد اقتراح، وكنت أظنه اقتراح جيد.

ـ وسأبقى دون مال إذا لم أركب جيادك المباركة.

ـ وهذا هو المهم عندك.. أليس كذلك ؟

نظرت إليه بحدة :

ـ تعلم أنه غير مهم. لكن ليس لي اعتراض على أن اصبح ثرية ... ومن الذي يعترض؟ لكنك هددتني بغضب عمي إذا لم أساعدك.

ـ أهذا ما بدا لك ؟

ـ هذا ما قصدت أنت أن يبدو لي .. نيل.

ـ يرضي غروري أنك صدقت كلامي.

ـ كان يجب أن أكون متعقلة أكثر.. يبدو أنك معتاد على إقناع النساء بفعل ما تريد.

ـ حقاً.. ؟ من أين حصلت على هذه الفكرة المهينة يا ابنة عمي الحلوة.. ؟ أيمكن أن يكون من دايفد ؟

ـ لا .. ليس دا...

ـ كاذبة!

رفعت رأسها بحدة :

ـ إياك أن تجرؤ على مخاطبتي هكذا ! لست فتاة صغيرة .. ومن حقي بعض الاحترام.

ـ ليس حين تصغين إلى إشاعات حاقدة.

ـ حاقدة ؟ أم أنها صحيحة إلى حد الازعاج؟ ما فهمته أن هذا معروف عنك.

ـ حقاً ؟

ـ أوَتنكر؟

www.elromancia.com

ضحك بهدوء، فأحست أنها ستواجه نقاشاً حاداً :

ـ لست مضطراً للإنكار .

نظرت إليه بارتياب :

ـ لأنها الحقيقة ؟

ـ لأن الأمر لا يعني أحداً سواي . إلاّ إذا . . كنت مهتمة بالأمر شخصياً .

احمرت وجنتاها وعلمت أنه يضحك منها .

ـ طبعاً لا أهتم . . قلت لك إنني تخطيت مرحلة ذلك الافتتان المراهق .

ـ إذن لا أرى أن الأمر يهم أحداً سواي . . . صحيح؟

ـ بكلمات أخرى، تقول لي أنني فضولية في أسئلتي . . أليس كذلك!

ـ ليس بالضبط . . لكنك تدسين أنفك الجميل في كل مكان تشائين . لكنني سأكون شاكراً لو طلبت من صاحبك أن لا يسرد لك كل قيل وقال صغير يسمعه عني . . . في الواقع، أعتقد أن لديه أشياء أخرى أهم من القيل والقال حين تكونين معه .

ـ دايفد مجرد صديق، وصديق مشترك، وليس «صاحباً» كما تصفه .

ابتسم مصححاً ابتسامته باعتذار أكثر إهانة :

ـ أنا آسف . . حالة أخرى من عدم الفهم . . هل أفهم من هذا أنني مخطيء؟

ـ أنت فعلاً مخطيء . . فلا شيء بيني وبينه . . إنه يتصرف دائماً باحترام .

ـ كم هذا مما لك !

ضحكته، جعلتها تشد قبضتيها فوق الطاولة :

ـ أعرف أنك لا تحبه . . لكن لا داعي لأن تفكر هكذا بنا .

ضحك :

ـ أنا ودايفد . . ! الرذيلة والفضيلة !

أحست بالضحك يغلي في داخلها لكنها قالت بهدوء :

ـ ليس بهذا السوء، فلديك بضع أشياء جيدة نيل .

مد يده يمسك بيدها ويرفعها إلى فمه، ثم تنهد بعمق :

ـ الرضى . . ! الاستحسان أخيراً !

ضحكت لمبالغته، واستمرت تضحك وهي تتكلم :

ـ أنت فعلاً أحمق !

ـ في بعض الأمور .

أعاد يدها إلى فمه، ثم نظر إليها طويلاً قبل أن يتركها :

ـ حسناً . . هل ستدربين الأغبر لي هذا الصباح ؟

ـ إذا أردتني أن أفعل .

ـ أرجوك . . سأكون مشغولاً اليوم .

هزت رأسها وفمها مليء بالتوست :

ـ سأغير ثيابي حال أن انهي الفطار .

وجدت الأغبر مسرّجاً ينتظرها حين خرجت إلى الفناء الخارجي . . لكنها لم تجد نيل . . فاضطربت، لأنها لم تكن واثقة بعد من قدرتها على الركوب لوحدها، وسرعان ما ظهر موبرلي، متجهاً كعادته فنادته :

ـ صباح الخير . . هل رأيت السيد بينروز ؟

هز الرجل رأسه الأصلع .

ـ شاهدته باكراً آنسة .

ـ باكراً؟ اتعني قبل الفطار؟

ـ لا آنسة . . قبل عشر دقائق .

تنهدت :

www.elromancia.com

- واين هو الآن ؟
- لقد ذهب .
- أظنه ملّ انتظاري فذهب لوحده .
- لا يا آنسة . لم يكن لوحده . . كانت الآنسة ماك كري معه .
- أوه١ هكذا إذن !

لم يكن الأمر ليهمها لو قال أنه سيخرج مع تريستا ماك كري . والتفتت إلى الرجل :

- حسناً . . ساعدني في الركوب .

ساعدها لكن دون كفاءة نيل . . ولكزت الأعبر القلق بحذر، من المفترض بها أن تقوم بدور الفارسة أكانت لوحدها أم لا، وكان الفرس متوتراً لكثرة وقوفه، حتى أنها تأخرت عن السيطرة عليه أكثر من عادتها . . لم تجرؤ على اطلاق العنان له قبل أن تتأكد من نفسها . . ووجدت، مندهشة، كم من السهولة العودة إلى الثقة بالنفس، وقررت التمتع بنزهتها .

بدت لها الساقية باردة رقراقة تحت أشعة الشمس، فأرسلت المطية تدوس في الماء دون تردد، متجهة دون وعي منها نحو مزرعة بايتس . وانطلقت عبر المراعي في الجهة الاخرى من الساقية متجهة إلى المزرعة بشيء من التحدي، لأنها لم تكن واثقة من الترحاب بها هناك، في مثل هذا الوقت المبكر، فدايفد رجل عامل، بالرغم من ذوقه الرفيع في السيارات الفخمة السريعة .

كانت تقترب من بوابة الفناء حين سمعت أصواتاً جاء بها الريح . . إنه نيل! يضحك بعمق . . يبدو أن عند دايفد زوار لا ترغب في رؤيتهم الآن، فثنت عنق الجواد كي تلتف من وراء المنزل دون أن يلحظها أحد .

بدا لها أن الوقت قد طال إلى ساعات قبل أن يخرج نيل وتريستا مودعين . واعطتهما وقتاً كافياً ليبتعدا عن النظر . قبل أن تدخل الفناء تحس بالغباء في وقت تقدم دايفد لملاقاتها .

- إلثي . . هذه مفاجئة سارة .
- هل أنت مشغول؟
- أبداً . . أنا مسرور لمجيئك .

ضحكت :

- يجب أن اعترف أنني كنت مارة من هنا، ولم أخرج قاصدة زيارتك .
- لا يهم . . لقد فاتك رؤية نيل وتريستا لتوك .
- لقد تعمدت أن لا أراهما . . لحسن الحظ سمعت صوتيهما وانتظرت إلى أن ابتعدا .
- أوه . . أتحاولين تجنبهما لسبب محدد ؟

أدخلها إلى الغرفة الصغيرة التي تتذكرها من الزيارة الاولى وأشار إلى مقعد مريح . . وردت بعد أن جلست :

- بطريقة ما . . لم أرغب في أن يظنا أنني لحقت بهما إلى هنا . لكان الأمر محرجاً لي .
- في الواقع . . دهشت لأنني لم أرك معهما .
- لا أريد التحدث عن نيل واهواءه . فلنتس أمره، أيمكن هذا ؟
- وهذا ما يسرني .

ابتسمت :

- تعجبني هذه الغرفة . . إنها تبدو «بيتية» .
- لكنها بحاجة إلى لمسة امرأة .

كشرت في وجهه ضاحكة :

ـ أوليس هذا غزل قديم الطراز ؟

ـ لا أظن، ولا أعرف الفرق. لكنني أحس بأن هناك ما ينقصني .

ـ لديك مدبرة منزل .

ـ هذا ليس كوجود امرأة طوال الوقت .

ـ تعني مدبرة منزل بدوام كامل دون أجر . . بكلمة أخرى زوجة؟

وضحكت ثم أكملت :

هناك حل واحد لهذا دايفد .

ـ لم أفكر بالزواج سوى مؤخراً . . وأنا الآن أفكر جدياً .

ـ وتتخلى عن حريتك ؟

ـ لم أعد أحب العزوبية إلتي . . ليس بعد الآن .

ضحكت :

ـ إذن يجب طردك من نادي العزاب المدمنين .

أمسك بيدها :

ـ إيلثيا . . أنت لا تعنين أنك أنت أيضاً من العزاب المدمنين ؟

ـ بكل تأكيد أعني ما أقول .

ـ أتمنى أن لا تكوني هكذا . . على الأقل كنت آمل في اقناعك .

ردت متمهلة كي لا تجرح مشاعره :

ـ لكنني محتاجة إلى الكثير من الإقناع دايفد . . فأمامي الكثير أخسره .

ـ لكنك خسرت الكثير لتأتي إلى رايفن هال .

ـ فعلت هذا لأن العم والترجل عجوز جداً . . وبطريقة ما، أحبه، وأعتقد أنني دائماً كنت أحبه، مع أنه كان يرهبني وأنا صغيرة . . فكرة أن أصبح ثرية، كانت آخر تفكيري . . وأحاول أن لا أظنها أنها السبب الرئيسي في مجيئي إلى هنا .

ـ أنا واثق من هذا . . لكنني أكره أن تبتعدي من هنا ثانية . وأعني هذا مخلصاً .

نظرت إليه ملياً . . لم يعد ذلك الفتى في السابعة عشر من عمره، ولم تعد هي بالتالي تلك الفتاة في الخامسة عشرة . . كلاهما الآن ناضج، وكلاهما جذاب بما يكفي لابقاء صداقتهما مستمرة أكثر مما يفعل حنين الطفولة . وضعت يدها على وجهه :

ـ أعرف ما تعني دايفد . . وأحس بالرضى .

ـ لكنك لا تشعرين بنفس مشاعري . . صحيح ؟

وتنهد، دون أن يعطيها فرصة للرد، أكمل :

ـ حسناً . . لكنني أرفض التخلي عن الأمل . سأبقى آمل أن أكسب ودك قبل عودتك إلى لندن .

كانت تسير عبر المروج، مقتربة من الساقية، حين سمعت صوتاً ينادي باسمها . التفتت لتجد نيل يقطع السهل بسرعة من الناحية الاخرى . . لا بد أنه أوصل تريستا إلى منزلها، وهو مستعد الآن لقضاء بعض الوقت معها . . طيش ما، ركب رأسها، فشدت مهمازيها إلى جانبي ركوبتها وأطلقت له العنان بدلاً من أن تتوقف .

انطلق الأغبر باقصى سرعة له، وأضطرت إلى التركيز على البقاء ثابتة فوق السرج، مدركة أنها ترتفع . . دون أن تهتم . سمعت صوت حوافر جواده خلفها، فحثت الأغبر على السرعة أكثر . . . إذا لم يكن نيل يرغب في رفقتها قبل الآن، فهي في غنى عن رفقته . وأحست بالإثارة تتملكها . فليلحق بها نيل إن استطاع .

ـ إيلثيا! إيلثيا!

لكن الأغبر كان قد استشعر بمزاج راكبته، وهذه عادة الخيول الأصيلة . . فسارع إلى خوض الساقية، مصمماً على إبقاء زميل اسطبله

www.elromancia.com

في المؤخرة، مع أن لا أمل له في أن يسبق الجواد الأطول منه قوائماً .

- ابطئي من سرعتك . . إيلثيا! .

انحنت فوق قربوس الجواد، تحس بتعب ساقيها وذراعيها . . وسرعان ما أصبح الجواد الكستنائي إلى جوارها ومد نيل يده يقبض على لجام الأغبر. وبالتدريج خفف سرعة الجوادين، كل منهما يرفع رأسه، كارهاً أن ينتهي هذا السباق .

في لحظة كان نيل يقف تحتها مباشرة :

- أيتها البلهاء اللعينة! ماذا تظنين نفسك فاعلة ؟

لأول مرة أحست إيلثيا أن لها اليد العليا عليه . . لأول مرة لاحظته يرتجف . . أكان هذا من خوفه عليها أم على نفسه ، لا تدري . لكنها رفعت رأسها تنظر إلى الأسفل إليه من وراء أنفها الصغير .

- كنا نظهر لك مقدرتنا .

- وكان يمكن أن تكسري رقبتك . . ألا تدركين هذا ؟

ضحكت :

- هل أعجبتك المنافسة ؟

- لم تكن منافسة . . وإذا فعلت شيئاً غبياً كهذا مرة أخرى . . .

صمت يهز رأسه في محاولة للهدوء، ثم أكمل :

- لا تحاولي الركض قبل أن تتعلمي المشي .

- لكنني كنت ناجحة فيما أفعل . . . أنت فقط لا يعجبك هذا . . . وأنني كدت أسبقك .

- تسبقيني . . ؟ ليس وأنت على ظهر الأغبر . . أنت لم تكوني متجهة لتحقيق شيء سوى الوقوع السيىء . .

- هراء!

- ليس هراءاً . . ما الذي دهاك على أي حال؟ لماذا ركضت هكذا ؟

- أنا . . فقط . . لم أرغب في أن ترافقني .

- أية رفقة، أم مجرد رفقتي؟ هل لي أن أخمن؟ أيكون السبب أنك عرفت برفقتي لتريستا ؟

- لا يهمني مطلقاً من ترافق وإلى أين .

ورفعت رأسها متعالية حين ضحك . وقال :

- فكرت أن تلقنيني درساً . . لأن موبرلي لم يعطك الرسالة التي تركتها لك على ما أظن . . صحيح ؟

هزت رأسها نفياً . . فتنهد عميقاً :

- أوه . . حسناً . كان يجب أن أكون أكثر تعقلاً من أن أترك له أمر إخبارك . . تريستا كانت مستعجلة، وأنا أكره أن أترك سيدة تنتظر .

نظرت إليه بازدراء :

- وأنا في نظرك لست سيدة . . صحيح ؟

ابتسم يلامس وجهها وقال بنعومة :

- أوه . . بلى . . أنت سيدة . . لكنني ظننتك ستفهمين . تريستا تريد شراء جواد من دايفد، وتريد نصيحتي . وجاءت في آخر لحظة لتطلب في مرافقتها .

- أوه! . . . أوه . . هكذا إذن !

- أوه . . فهمت إذن . لا داعي لك للمخاطرة بكسر عنقك الجميل لمجرد اظهار امتعاضك مني بسبب ذهابي معها وتركك .

أغمضت عينيها آلياً وهو ينحني ليقبل جبينها بسرعة ويكمل بنعومة :

- مع ذلك فقط أرضيت غروري . . . بمجرد أنك أحسست بالغيرة بهذه الدرجة .

حاولت إيلثيا جاهدة أن تجد كلمات مناسبة تظهر له مدى خطأه . .

www.elromancia.com

لكن دون جدوى .

كان لا يزال يضحك وهما واقفان عند السياج يتفرجان على المهرين الصغيرين . حين أطلت تريستا من بوابة حديقة المنزل، فقالت له :

ـ لديك زائر . .

فاستدار بكسل :

يمكن أن يوصف ترحيب نيل بوصول تريستا بالفاقد للدفء . لكن الفتاة تقدمت منهما غير عابئة، وبدت في ثيابها الأنيقة في غير مكانها الصحيح عند حاجز حظيرة . هزت رأسها تحية لايلتيا وابتسمت بسعادة لنيل .

ـ نيل حبيبي !

ـ مرحباً . . ماذا جاء بك إلى هنا؟

ـ أنت بالطبع حبيبي .

رد ساخراً :

ـ طبعاً . .

فضحكت، ودست ذراعها المتملكة في ذراعه .

ـ كنت أمر من هنا ورأيت أنها فرصة لمشاهدة مواليدك الجدد . .

مد يده بطريقة عفوية نحو الفلوين :

ـ حسناً ها هما .

ـ أوه نيل . . كم هما جميلان . . رائعان تماماً .

رد ساخراً :

ـ إنهما صحيحا الجسم .

ـ أحببت الصغير . . إنه جميل محبوب .

ـ تعنين «البرق» . . يبدو أنه المفضل للجميع . . إيلثيا تحبه كذلك .

ـ البرق . . أوه اسم رائع . . أنت ذكي في تسميته هكذا .

ـ لم اسمه أنا . . بل إيلثيا .

ـ أوه . . صحيح؟ مهما كان اسمه إنه جميل . . يجب أن أحصل عليه . .

ـ صحيح؟ يجب أن تحصلي عليه؟

ـ حسناً . . عيد ميلادي في الشهر القادم . . وأنا واثقة أن «بابي» سيشتريه لي .

ـ أنا واثق من هذا . لكنه ليس للبيع تريس .

ـ ليس . . . أوه فهمت . . ! لن أرفضه إذا كان هدية منك . . حبيبي .

وهذا بالضبط ما كانت إيلثيا تتوقع سماعه منها، وما كانت تلمح إليه منذ بدأت الكلام عن الفلو الصغير، وهذا ما عناه نيل بالضبط حين نظر إلى إيلثيا سرا وهو يبتسم . . . سيعطيها الفلو هدية عيد ميلاد، وهو يشارك إيلثيا في هذا السرّ .

لكن نيل كان يهز رأسه، ومضت دقيقة كاملة قبل أن تدرك معنى هذا . . وقال :

ـ آسف تريس . لا بد أنك أسأت فهمي . . لا أستطيع إعطاءك البرق، لأنه ليس لي . . إنه لايلثيا .

كان من الصعب التمييز بين أيهما كانت دهشته أشد من الاخرى، إيلثيا أم تريستا . . وشكرت إيلثيا الله على أن المرأة كانت تدير لها ظهرها . . على الأقل حتى تتمكن من السيطرة على دهشتها . وسار صمت طويل . . صمت بارد متوتر وجدته إيلثيا مزعجاً .

استدارت عينا تريستا اللوزيتان الحادتان إليها، ولاحظتا احمرار خديها . . وقالت ببرود قاتل :

ـ تهنئتي لك .

www.elromancia.com

لم تستطع إيلثيا أن ترد . . فسارع نيل لنجدتها :

ـ إنها هدية دون وجود عيد ميلاد . . إيلثيا تساعدني كثيراً . وتعرفين هذا .

ـ حقاً ؟

وأدارت ظهرها مجدداً إلى إيلثيا . . وتابع :

ـ إنها تعمل معي من غير أجر . . والبرق تعويض لها على تعبها معي .

جاء الرد بارداً حاداً كحد السكين :

ـ فهمت . . وما الذي يجب أن أفعله لأحصل على مثل هذه المكافأة الكريمة نيل ؟

ضحك، وكأنه يجد سمّها مسلياً :

ـ لست بحاجة إلى فتاة اسطبل اخرى . . . واحدة تكفيني .

ـ في هذه الحالة، أظن واحدة أكثر من طاقتك .

حين أخبرت إيلثيا عمها العجوز بالأمر وافق بسرور :

ـ نيل ليس بحاجة للمال . . . لكنه متمسك باستقلاليته مع أنه قادر على أن لا يفعل شيئاً .

ـ أعرف أنك تحبه لعمله أكثر . . ولقد قلت لي أنك ستنظر إلي نظرة رضى لو حاولت كسب معيشتي هنا .

ـ الهذا ساعدته في ترويض الخيل ؟

ـ لا . . لكنه أجبرني بالخداع .

دخل نيل إلى الغرفة في تلك اللحظة، فقال له العجوز :

ـ سمعت أنك أعطيت ايلثيا مهراً صغيراً .

ابتسم نيل وهو يجلس :

ـ هذا صحيح .

ـ إذن أنت جاد .

نظر إلى إيلثيا :

ـ طبعاً أنا جاد . أظنتني أنني لست جاداً إيلثيا ؟

ـ أنا . . لم أكن واثقة .

ـ الهذا لم تشكريني ؟

ـ أنا آسفة نيل . .

وقفت قربه تبتسم وتكمل :

ـ شكراً لك . . جداً . . جداً . . إنني أحبه نيل . . حقاً .

كانت تنوي أن تقبل جبينه بخفة ، لكن حين انحنت فوقه، وضع يداه على خصرها وجذبها لتجلس إلى ركبتيه، فمها اندفن في قميصه حين بدأت بالاحتجاج . . بعد عناق حميم، تركها قائلاً :

ـ هكذا أفضل .

فقفزت عن حجره محمرّة الخدين لتسمع ضحكة العجوز العميقة المنخفضة . . ووقفت مضطربة وظهرها إليهما معاً :

ـ أتمنى أن لا تفعل هذا ثانية نيل .

ـ ظننتك أنت تفعلين هذا . . كنت ستقبليني . . أليس كذلك؟

ـ أجل . . لكن ليس هكذا . . . أواثق أنك تريد إعطاءه لي؟

ـ واثق تماماً .

حين اخبرت دايفد بما حصل في اليوم التالي، وهما يتنزهان بسيارته سألها متعجباً :

ـ ولماذا فعل هذا؟ هل طلبته منه ؟

ـ لا . . بالطبع لا . . لكنه يعرف أنني أحببت المهر . . . وكان هذا نوع من الشكر لي على مساعدتي له .

ـ هذا كرم كبير منه .

www.elromancia.com

وضغط على دواسة السرعة، وطارت بهما السيارة بسرعة أكبر مما تحبها إيلثيا، مع كل حبها للسرعة. وأكمل :

ـ اعتقد أنه كان يحاول أن يكون عادلاً مع نفسه .

ـ ربما . . مع أنني اتمتع بما أعمل لأجله .

ـ أوه . . استميحك عذراً :

ـ لم يكن هناك مجال للخطأ في سخريته . . وفي تلك اللحظة كان يستدير في زاوية حادة من الطريق . . ولم يكن من عادته أن لا يكون حريصاً وهو يلتف في مثل هذه الأماكن، ولا يخفف من سرعته . . لكنه كان غاضباً مما سمعه من ذهابها إلى معرض الخيول الموسمي مع نيل، إضافة إلى اعترافها بتمتعها بعملها في الاسطبل . .

كانت السيارة في منتصف الطريق تلتفّ في المنحنى حين أدركت فجأة أن هناك سيارة أخرى قادمة من الاتجاه الآخر فأحست بخفقان شديد مجنون في قلبها وقد أدركت بوضوح رهيب أن الاصطدام محتم . . . لكن لحسن الحظ، كانت ردة فعل دايفد سريعة واثقة، فادار المقود ليتجنب السيارة ببضعة انشات، ويصطدم بدلاً عن ذلك ببعض الشجيرات الشائكة على طرف الطريق . . لكن إيلثيا كانت قد خبأت وجهها ترتجف . . ثم جلست صامتة للحظات .

توقفت السيارة الأخرى كذلك . ورفعت إيلثيا رأسها في الوقت المناسب لتشاهد وجه نيل الغاضب، يتقدم نحوهما بغيظ :

ـ هل أنت بخير ايلثيا . . ؟

هزت رأسها فاضاف :

ـ أواثقة أنت؟

ـ أجل . . أجل . . أنا بخير . . حقاً نيل ! .

التفت ساخطاً إلى دايفد .

ـ ماذا كنت تفعل؟ كنت تستدير المنعطف بسرعة لا تقل عن الثمانين . . هل فقدت عقلك؟

ـ وأنت كنت مسرعاً . . لكن أحداً لم يصب . . صحيح؟

ـ لم تتجاوز سرعتي الستين، وليس معي أحد .

نظر دايفد إلى إيلثيا :

ـ إيلثيا! هل أنت على ما يرام؟

ـ أجل دايفد . . شكراً . . مصدومة قليلاً .

صاح نيل بصرامة مؤذية :

ـ من حسن حظك أن لم تقتلي .

قال دايفد غاضباً :

ـ لا يهمني رأيك . . إبتعد عن طريقي .

ـ وأنا لا يهمني لو كسرت رقبتك اللعينة . . لكن حين تكون إيلثيا معك . . يجب أن تكون حذراً، أو اكسرها أنا لك !

كان واضحاً أن استمرار النقاش سينتهي لخسارة دايفد . وبدا أنه يشاركها الرأي، فقد أدار السيارة وأرجعها إلى الوراء صامتاً . فصاح به نيل :

ـ بايتس !

أرجع دايفد السيارة وقال :

ـ أرجوك نيل!

نظر نيل إلى إيلثيا لحظات، ثم لوّح بيده متمتماً بغيظ وسمعت دايفد يطلق تنهيدة ارتياح حين انطلق بسيارته .

توقعت تعليقاً من نوع ما من نيل حين عادت إلى المنزل .

لكن نيل كان قد تجاوز غضبه، وعاود مزاجه المرح . . . جلسا متواجهين في غرفة الجلوس بعد ذهاب العجوز للراحة . .

www.elromancia.com

وسألها :

- أهناك شيء يشغل بالك ؟

- يشغل بالي؟

- تنظرين إلي باستمرار بما لا أستطيع وصفه سوى بنظرات لها معنى. وكأنك تتوقعين حصول شيء ما .

- هذا أمر سخيف . . وما الذي جعلك تظن هذا ؟

- تتوقعين مني قول شيء ما حول شيء ما. هل أنا محق؟ هل تجاوزت صدمة هذا الصباح .

- أجل . . شكراً لك .

- عظيم . . لم أعرف يوماً أن دايفد صدم أحد سياراته الثمينة ولا بد أنك كنت سبب شروده .

لم تكن قادرة على أن تشرح له ما جرى . . فصمتت مطرقة لتسمعه بعد قليل يقول لها من وراءها .

- دعيه يكسر لك عنقك في المرة القادمة . . فأنا لن أهتم .

ضحكت :

- أصدقك .

ووقفت تواجهه . . تلك اللحظات كانت تشبه تماماً اللحظات الرومانسية التي كانت تعيش فيها يوم كانت في الخامسة عشرة . . فاحست بساقيها يضعفان . . ولو أنه لم يمسك بها جيداً لوقعت . . ولفت يديها حول رأسه، لتحس أنها تنزلق ببطء نحو حلم دافيء مثير، لكن محفوف بالمخاطر . . . فقط حين دفن رأسه في شعرها . . . وأحست بحرارته، عادت إلى رشدها . . وأدركت أنها تخطت مرحلة الحلم . .

- نيل !

رفع رأسه مكرهاً، وافقها . لكنه أخذ يتفرس بها بحدة .

- لا تقولي لي أنك صدمت بتصرفي . . لأنني لن أصدقك .

- لم أصدم . . فلست متلونة لدرجة أن أدعي هذا . لكن . .

- لكن . . ماذا ؟

- أنا لا أحب العلاقات غير الشرعية نيل !

- غير شرعية؟ من . . أنت أم أنا؟

فهمت ما يعني :

- لا أستطيع وصف صداقتي لدايفد بأنها غير شرعية .

ضحك :

- لكنك تصفيني بأي شيء يصفني به دايفد، هه؟

- لم أقل هذا . . ثم أنت لم تنكر . . وأنا لا رغبة لي أن أكون واحدة من صف طويل في حياتك .

تركت الغرفة باسرع ما تمكنت. لتصفق الباب كي لا تسمع صوت ضحكته العميقة المجلجلة .

www.elromancia.com

٥

الفكرة المناسبة

بالرغم من أنها لم تكن متحمسة لمعرض الخيول السنوي، إلاَّ أنها أحست بالإثارة لزيارته مع نيل. وكانت تتطلع بشوق إلى ذلك الموعد، فمنذ لحظة عناقه لها، والذي من الأفضل أن تنساه، بدا وكأنهما متفقان على علاقة، ليست بالضبط علاقة أخ بشقيقته، ولا هي بالعلاقة الرومانسية كذلك.

كانت الموسيقى تصدح من كل مكان في المعرض، وأملت إيلثيا أن تشمل خطط نيل زيارة العديد من أماكن اللهو التقليدية في مثل هذه المعارض. وقالت له حين ضحك عليها:

ـ اذهب أنت واشتر الجياد التي تريدها.. وسأتجول لوحدي اتفرج على وسائل اللهو الموجودة هنا إلى أن تنتهي.

ـ لن تفعلي هذا.

قبضته على ذراعها اشتدت، فنظرت إليه مجفلة:

ـ لكنني سأكون على ما يرام.. لن أضيع.. أعدك.

رد بحزم:

ـ أعرف أنك لن تضيعي.. لأنني لن أدعك تغيبين عن بصري. فهناك زبائن من خشني الطباع في هذه الأماكن. وأنت أجمل من أن أدعك تضيعين وسط جمع أشك في أخلاقهم.

ـ لكنهم مجرد مزارعين، أهل الريف.

ـ وهناك آخرون.. فابقي إلى جانبي يا فتاتي. وإلاَّ ستجدين العيون تلاحقك.

ضحكت إيلثيا، بعد أن لاحظت نظرة مماثلة حتى وهو يتكلم:

ـ لم يسرقني الغجر من قبل.. وقد يكون هذا أمر مسلٍ.

ـ تأدبي يا فتاة.. كنت أثق بك أكثر حين كنت في الخامسة عشر

ـ وكنت محقاً.. لأنني كنت أخاف أن ابتعد عنك.

ـ إذن من الأفضل أن تخافي الآن.. فستكونين محقة في الخوف لو حاولت التسلل إلى أي مكان وأنا مشغول.

وجدت نفسها مأخوذة بالرغم من ترددها السابق، فما أن بدأ البيع، حتى ازدادت الإثارة حين صمم نيل الرأي على فرسة كستنائية جميلة صغيرة، أحبها ساعة رآها. وأخيراً نجح نيل وقاد الفرسة إلى العربة الصندوق تلحق بهما إيلثيا مسرورة، التي راقبت والفرسة تصعد إلى العربة ويقود موبرلي السيارة تجرها خلفها.

ـ إنها جميلة!

ضحك:

ـ هناك شخص آخر كان يؤمن بهذا أيضاً.. فوكيل تريستا ماك كري هو الذي سبب لي كل هذا التعب.

ـ أوه.. يا إلهي! لن يعجبها ما حصل إذن.. أليس كذلك!

ـ إنني أراها قرب الحلقة. ومن الأفضل أن أذهب لألاطفها.

ـ لكن..

www.elromancia.com

- أبقى هنا حيث أجدك بسهولة . . لن أتأخر .

بعد خمس دقائق من الانتظار دون أن يعود، بدأت تحس بالغضب لهجره لها بكل بساطة . دقائق أخرى وكادت تنفجر . كانت على وشك أن تقرر التحرك حين لامست يد ذراعها . . فاستدارت بحدة متذكرة إشارة نيل للشخصيات الشرسة .

حدّق وجه يشبه القرد ملفوف بشال أحمر مربوط بطريقة تقليدية، وقال لها صوت رفيع أجش بابتسامة فكشف عن فم لا أسنان فيه :

- لوحدك حلوتي؟

- لا . . في الواقع انتظر شخصاً ليعود .

- هل أرى لك الطالع وأنت تنتظرين؟ تعالي حلوتي . . دعيني اعلمك بما تخبىء النجوم لك . فلك وجه محظوظ .

حتى وهي تهز رأسها رافضة، كان الإغراء يتملكها . . فهناك دائماً نوع من السحر في الغجر .

- لا . . لا . . شكراً لك .

- دقائق فقط عزيزتي .

جرتها الغجرية إلى مكان تجلس فيه فوق القش . . وحدقت العينان العجوزتان في يدها لحظات ثم هزت رأسها ببطء :

- لك حياة تعيسة عزيزتي . . ومر الحزن عليك باكراً، لكنك كنت محظوظة كذلك . وستكوني أكثر حظاً بعد يا عزيزتي . . فالكثير من المال بانتظارك . . مع أنه قد يجلب لك المزيد من التعاسة في البداية . . ستخسرين شخصاً عزيزاً، قريب لك . لكن أمامك الحظ . . الكثير منه . . كما أنني أرى رجلين . . وفتاة مثلك لا ينقصها من يجري ورائها . أحدهما اسمر والآخر أشقر . .

رفرفت إيلثيا بشدة، مثل هذا التطابق مستحيل أن يكون مصادفة .

وذكر خسارتها لوالديها في سن مبكر، والإشارة لمال عمها العجوز . . .

- أرجوك . تابعي .

- تريدين معرفة من منهما سينالك . . أليس كذلك يا حلوة ؟

- أجل . . أعتقد هذا .

قبل أن تتابع العجوز الغجرية، وقع ظل فوقهما ، فتطلعتا إلى فوق مجفلتين . لكن الغجرية سرعان ما استعادت جأشها :

- أوه . . هذا أنت أيها الوسيم .

وضحك نيل .

- أجل هذا أنا . أيتها المتشردة المحتالة . ماذا كنت تقولين لابنة عمي ؟

- ابنة عمك؟ لست قريبها إلى هذه الدرجة أليس كذلك؟

ضحك ثانية وأخذ يد إيلثيا وجذبها لتقف .

- ليس تماماً . . . كان الأفضل أن لا أحاول خداعك . . أليس كذلك؟

هزت العجوز رأسها وقد اتسعت بسمتها الخائبة من الأسنان .

- قلت لها طالعها . . ومن الحق أن تدفع لي أجري .

- طبعاً . .

- فليباركك الله عزيزي . . باركك الله . . . احذري الأشقر عزيزتي، إنه لا ينفعك .

قالت إيلثيا وهي تسير معه يدها في يده :

- لم أكن أعرف أن لك أصدقاء غريبي الأطوار هكذا .

ابتسم لها :

- أوه . . أنا أراها كل سنة في المعرض . . إنها زائرة دائمة هنا .

- وهل هي غجرية حقيقية ؟

ـ أجل . . أصيلة .

ـ يبدو أنها تعرف الكثير عني . . أشياء عن الماضي . . لا يمكنها أن تخمنه .

رفع حاجبيه :

ـ ماضيك؟ وهل لك ماضٍ ؟

ـ طبعاً . . أعني أنها عرفت بحزني على والداي حين كنت طفلة . . وعرفت أنني . . أن هناك مالاً كثيراً في انتظاري .

ـ أهذا كل ما قالته . . ؟ لا شيء عن حياتك العاطفية؟

ـ ليس كثيراً . . لم يكن لديها الوقت . . هل أخبرتك الطالع يوماً؟

ـ أجل . . فعلت .

ـ وهل صدقتها ؟

صمت لحظات مفكراً :

ـ أجل . . أظن أنني صدقتها . . اترين . . قبل وفاة أمي بثلاثة أسابيع كنت أزور المعرض مع أبي وأصرت أن تقرأ لي المستقبل . لم نكن نعرفها من قبل . . لكنني لم أستطع نسيانها فيما بعد .

ـ وماذا قالت لك ؟

ـ ما قالته لأبي . . قالت إنه سيخسر عزيزاً خلال شهر .

ثم صمتت، ورفضت قول المزيد . إنهم لا يحبون قول الأخبار السيئة .

ـ أوه . . نيل . . هذا أمر فظيع .

ضحك :

ـ إذا قالت لك أنك ستحصلين على ثلاثة أزواج وعشرة أولاد فاحذري .

ـ قالت إنه إما أسمر أو أشقر، لكنها لم تقل أيهما . .

ـ ربما هذا أفضل لك .

حين أعادت ايلثيا التفكير بدقة العجوز الغجرية في التكهن بموت والدة نيل . . أحست بقلق غريب . . وتساءلت عما كانت ستكشف لها لولا تدخل نيل .

ذلك الصباح جلست تتناول فطارها متمهلة تفكر بأحداث الأمس . . كانت تعرف أن نيل قد نزل باكراً إلى الاسطبل ليلقي نظرة على الفرسة الجديدة التي اشتراها . . . ولا بد أنه الآن قد خرج يدرب جواداً ما بدل أن ينتظرها كعادته . . .

رفعت رأسها دهشة حين ظهر موبرلي بالباب يبدو عليه الارتباك بطريقة غير عادية . . فسألته باستغراب :

ـ اهناك شيء خاطىء موبرلي . . إذا كنت تبحث عن السيد بينروز فقد خرج منذ مدة .

ـ أعرف هذا آنسة . . لكن . . يجب أن يأتي معي شخص ما .

وضعت فنجان قهوتها، وقد تملكتها خشية من أمر مجهول :

ـ ما الذي حدث؟

ـ إنه المهر آنسة .

قفزت واقفة لتصبح إلى جانبه قرب الباب في لمح البصر :

ـ البرق؟ أين هو؟

ـ إنه في الطريق الداخلي أمام المنزل .

ـ أتعني أنه خرج من الحظيرة ولا تستطيع إرجاعه؟

ـ لا . . إنه مصاب .

بسرعة، كانت قد أصبحت خارج المنزل، حتى أن الرجل لم يستطع اللحاق بها، وركضت نحو الجسد الصغير الهامد المستلقي على حافة العشب في الطريق الداخلية .

أحست بالدموع تتجمع في عينيها وهي تركع قربه . . ثم صاحت :

- موبرلي . . عد إلى المنزل واتصل بالبيطري ، وقل له إن الأمر عاجل . . كيف حدث هذا؟

ازداد اضطراب موبرلي وهو يرد ببطء :

- إنها الآنسة ماك كري . . لقد صدمته بسيارتها .

أصيب دماغ إيلثيا بصدمة لم معها تستطع التفكير كيف يمكن لأي إنسان ، أن يصدم حيواناً صغيراً كهذا ، ويتركه مرمياً على قارعة الطريق دون عناية . الغضب والشفقة كانا يتصارعان في نفسها حين عاد موبرلي ليقول إن البيطري قادم بسرعة .

اختفى موبرلي لعمل يقوم به . . وبقيت لوحدها مع الحيوان المسكين . . لكن سرعان ما وصل نيل لتستقبله بوجه حزين ، ودموع لم تستطع السيطرة عليها وهو يركع قربها . . وتفحصه بسرعة ثم ضمها إليه بذراعه .

- لا أظنه مصاب بكثير من الأذى . . لكن علينا الانتظار لمعرفة رأي البيطري .

- لكنه . . دون حراك . . ولا بد أنه يتألم .

- صحيح . . لكنني اعتقد أنه مصاب بكدمات . . وخوف . . موبرلي يقول إن الصدمة كانت خفيفة .

- إنها شريرة . . قاسية . . أن تتركه هكذا دون من يعتني به .

رد بصبر :

- صحيح . . هذه قساوة قلب منها . . لكنها لابد تعرف أنه لم يصب بأذى كبير .

- لكنها لم تهتم بما أصابه . . أكملت طريقها وتركته .

- لا بد أنها تأكدت من سلامته أولاً . . . تريس تعرف مثلي تماماً

بالجياد .

- أووه . . أعلم أنك ستجد الأعذار لها . أعرف هذا تماماً!

- أحاول أن أكون متعقلاً .

- حسناً . . أنا لست متعقلة . . لماذا لم تتوقف؟ لماذا تركت المسكين ملقى على الأرض وذهبت ؟

- إيلثيا . . .

- سأقول لك لماذا . . إنها تريده . . أرادتك أن تعطيها إياه .

- الآن أنت سخيفة!

- أنا لست سخيفة نيل . . وأنت تعرف هذا !

- أعرف أنك تتكلمين دون تفكير يا فتاتي!

- هذا غير صحيح . . كانت مصممة على أن تحصل عليه ، وحين فشلت أرادت التأكد من أنني لن أحصل عليه كذلك!

- إيلثيا توقفي عن هذا !

نظرت إليه بعينين واسعتين متهمتين :

- أعرف أنك لا تريد أن تصدق هذا . لكنها صدمته ، وتركته ، دون أن تتأكد من مدى اصابته .

ضمها مجدداً بنعومة .

- لا تبكي . . أنت تميلين إلى تضخيم الأمور . . سيكون المهر بخير . . ولا حاجة للبكاء . . أنت بهذا تخيفينه أكثر .

رفعت نظرها إليه :

- مهما حاولت الابتعاد . . يبدو أنني دائماً مضطرة للبكاء على كتفك .

ضحك ، ومسح شعرها الداكن :

- أهناك مكان أفضل منه للبكاء؟

www.elromancia.com

تماثل البرق للشفاء بدا لايلثيا معجزة . . وفي وقت لا يذكر كانت تراه أمامها يلعب إلى جانب أمه . . ووجد موبرلي الفتحة التي هرب منها في السياج وأصلحها .

زيارات تريستا المتكررة كانت تحيّر إيلثيا، حين طرقت الموضوع مع عمها، لم يخفِ العجوز كراهيته للفتاة الشقراء، ولا كان يحب مرافقة نيل لها، ولم يخفِ كراهيته هذه . . . مساء السبت، وعلى مائدة العشاء سألها نيل :

ـ اتظني نفسك قادرة على فراق مهرك ليوم كامل؟

نظرت إليه باستغراب :

ـ أظن هذا . . فلماذا ؟

ابتسم .

ـ أحس أنني بحاجة إلى رحلة نحو الساحل، للراحة، وظننت أنك قد ترغبين في المجيء معي .

ـ سأحب هذا لكن . . .

ضحك وقاطعها :

ـ لكن . . تتساءلين عما إذا كان دايف قادم ليخرجك في أحد وحوشه السريعة .

احمر وجهها غضباً وأجابت بحدة :

ـ أو الأكثر احتمالاً إنني افكر لماذا لا تأخذ تريستا ماك كري معك .

قاطعهما السير والترترانغ مقطباً :

ـ لماذا لا يمكنكما متابعة حديث بينكما دون جدال؟

فانفجرا ضاحكين . . وبدى الاستغراب على العجوز بينما قالت إيلثيا :

ـ آسفة عمي . . لكن يبدو أن هذا أمر مستحيل .

ـ هذا ما اكتشفته . . ونيل على الأقل كبير بما يكفي ليعرف ما يفعل .

كشر نيل في وجه إيلثيا، وخاطب العجوز :

ـ لا أستطيع منع نفسي أبي . . إنها تثير الأسوأ في أعصابي . هل تأتين معي غداً أم لا؟ أم أنت خائفة ؟

ـ قلت لك أنني أحب أن أجيء معك . . لكن إلى أين ؟

ـ إلى ساحل بحر الشمال . . في أي مكان استطيع فيه استعادة ذكريات الطفولة . . مع أنني لست واثقاً من أنني سأجد طريقي إلى هناك . . هل أنت بارعة في قراءة الخرائط ؟ .

ـ لم أحاول من قبل . . لكن هناك دائماً التجربة الأولى .

همس لها :

ـ وهذا ما أسميه التحدي .

أحست إيلثيا بالثقة في مقدرتها على توجيه سيرهما، مع أنه كان يشك في هذا . . وقالت له وهما يستعدان للرحيل :

ـ أتمنى أن تتوقف عن معاملتي كبلهاء .

ـ لا أريدك أن تتحملي أكثر من مقدرتك .

أخذا معهما بعض الطعام، على أن يشتريا بعض المرطبات في الطريق، وأحست إيلثيا بالخفة والمرح وهي تلوّح لعمها وتستقر في السيارة إلى جانب نيل لتتمتع بالمرحلة الاولى من رحلتهما حيث لا وجوب لإرشاداتها . فنيل يعرف نصف الطريق تقريباً . . بعد ذلك يحتاج إلى الاستدلال بالخريطة .

وأعتقد أن هذا هو السبب الوحيد الذي دفعك لمصاحبتي .

ـ كنت آمل أن لا تكتشفي هذا . . فأنت حساسة جداً .

ـ لست حساسة، لكني اقنعت نفسي بواقع أنك تنظر إليّ كشخص

www.elromancia.com

متعب .

ـ لا . . بالطبع لا .

ـ لا؟

نظر إليها من طرف عينه .

ـ أوه . . لا . . فأنت جميلة جداً . . ولست متعبة أبداً .

ـ أنت . . لك دماغ ليس فيه غير شيء واحد . . نيل بينروز . . ولقد ادعيت لنفسك القداسة حين قلت لك هذا .

ـ أنا . . القداسة . . لا سمح الله !

ـ لكنك أبديت السخط حين قلت أن نجاحك مع النساء أمر معروف علناً .

ـ ما قلته أنني اعترض على إشاعات دايفد عن حياتي الخاصة وهذا أمر يختلف عن ادعاء القداسة .

مد يده يمسك يدها، وقال بصوت رقيق :

ـ دعينا ننسى كل شيء، وكل إنسان، لنتمتع بيومنا .

كم يبدو الأمر سهلاً . . لكن كانت قد بدأت تحس بثقل التفكير باقتراب الوقت الذي يجب عليها فيه ترك رايفن هال والعودة إلى المدينة . . كما أن هناك الكثير من الأسباب التي تمنعها من التفكير بهذا الأمر . . . وقاطع أفكارها بعد قليل :

ـ الآن حان وقت أن تكسبي معيشتك . . خذي الخريطة وابدأي التفتيش عن طريق مختصرة توصلنا إلى الشاطىء . . لقد حددت مكاناً خاصاً بالقلم، وأرجو أن تتمكني من قيادتي إليه، قبل أن يحل وقت الغداء .

تفحصت الخطوط الزرقاء والبنية على الخريطة ثم قالت :

ـ همم . . . لا يبدو الأمر صعباً .

ـ أنا مسرور لهذا . . لكن لا تكوني واثقة كثيراً . . .

أبقت نظرها مثبتاً خارج النافذة تفتش عن مفترق الطرق الذي تشير إليه الخريطة، ثم لمحت الطريق الضيق . . فوضعت اصبعها أمامها على الزجاج . . فسألها :

ـ أهذا هو الطريق ؟

ـ إنه المفترق الثاني إلى اليمين . . أنت من اشرت إليه في الخريطة بالقلم .

ـ حسناً . . أنت الدليل .

وادار السيارة لتخرج عن الطريق الرئيسية، وأكمل عبر الطريق الضيقة، التي لا تزيد عن عرض سيارة واحدة، رملية السطح تحدها إلى الجانبين أعشاب سميكة . وإلى أحد الجوانب خندق عميق، حيث لا يبدو حولهما سوى حقول ذرة لا تنتهي . وقالت معلقة :

ـ إنه يوم رائع . . مناسب جداً للبحر .

رد متهكماً :

ـ هذا إذا وصلنا إلى هناك .

ـ ماذا تعني ؟

ـ أعني . . أنني واثق أن هذا الطريق لن يوصلنا إلى الشاطىء .

ـ لكن هذا أكيد . . أنت من وقعت الإشارة قرب المفترق .

بحذر استدار في منعطف حاد، ثم أبطأ السيارة ليوقفها أمام مخزن غلال مهجور يسد الطريق . . . وأطفأ المحرك . . في الصمت المطبق الذي تلا . . سمعته يتنهد بعمق . . . يسند ذقنه إلى يده ومرفقه إلى المقود .

ـ أكره أن أقول أنني قلت لك هذا . . لكنني قلت . . صحيح ؟

ـ لكنني لا أفهم . . لا بد أن الطريق هذه توصل إلى مكان ما .

ـ في الريف الانكليزي . . هذا معقول، أما هنا . . في اسكتلندا، فالأمر يختلف . . هذا إذا لم أذكر براعة الفتيات في قراءة الخرائط .

ـ لكن . . لكن هذا أمر سخيف . .

أخذ الخريطة منها، تفرس بها لحظات ثم نظر إليها بذهول، وأعادها إليها مقلوبة، فنظرت إليها قبل أن تهز رأسها ويقول لها :

ـ من الأفضل دائماً، أن تمسكي الخريطة ورأسها إلى الأعلى . . أيتها المشوشة الرأس . . الحمقاء . . كان يجب أن نستدير يساراً قبل منعطفين من الوصول إلى مفترق الطرق . ولي المنعطف التالي بعده .

ـ أنا . . أنا آسفة نيل . .

ـ أنا محتار . . هل أخنقك وادفعك في هذا الخندق العميق الجميل الموحل . . أم أهجرك هنا وسط اللامكان واتركك تفتشين عن طريق العودة بنفسك .

ـ أوه نيل . . أنا حقاً آسفة .

ـ تبدين مسكينة كصورة قطة على روزنامة . . لذا، سأتركك تنفذين بفعلتك هذه المرة .

ـ يمكننا الاستدارة والعودة .

ـ صحيح . . لو كان بمقدوري إدارة السيارة في هذا الطريق الضيق . . أمامنا اختيار بين ثلاثة، إما أن نتقدم إلى المخزن ونستدير هناك ونفسد بضعة بالات من تبن المزارع المسكين . . أو نجرب حظنا مع الخندق . . أو نبقى حيث نحن . . وأظنني سأجرب حظنا مع الخندق .

أدار المحرك ثانية، وجلست إيلثيا منكمشة صامتة . . الطريق ضيقة جداً، ولا مجال للمناورة . . ثلاثة مرات تقدمت السيارة، وتأخرت، ثم انطلقت ثانية، وبدا أنها سينجحان دون أي حادثة تذكر . . لكن سوء

احتساب بسيط، أوصل السيارة لتستقر في الخندق الموحل . . وأطفأ نيل المحرك :

ـ علقنا . .

ـ علقنا ؟

ـ أجل . . علقنا يا عبقريتي الصغيرة .

ـ كنت أعرف أنك ستلومني . . ماذا ستفعل ؟

ـ أرى بعض المداخن هناك، وهذا يعني منزل لمزرعة . لذا يمكن لواحد منا أن يذهب إلى هناك ويطلب بكل لطف وحذر المساعدة . . أو استخدام الهاتف .

ـ أتريدني . . أن أذهب ؟

ـ أظنه واجبك . . . إليس كذلك؟

دون كلمة فتحت الباب . . لكن قبل أن تنزل ساقيها منه مال نحوه وأعاد إقفاله . . ضحكته دافئة مطمئنة قرب اذنها :

ـ أيتها الحمقاء . . بالطبع لن أدعك تذهبي . . ابقي هنا . . ولا تدعي أحداً يسرقك في غيابي .

نظرت حولها خائفة :

ـ أرجوك نيل . . خذني معك .

ـ خائفة . . ؟ حسناً . . تعالي .

لحقت به ممسكة يده، يشق الطريق بين أعواد الذرة، ولم تلاحظ كما ابتعدا إلاّ حين وصلا إلى فسحة مرتفعة ونظرت إلى الخلف، فقال لها :

ـ كدنا نصل، انتمتعين بالسير؟

ـ في الواقع أجل . . رائع أن يشق المرء طريقه عبر حقل ذرة . .

ـ أمر رومانسي . . أليس كذلك؟

ـ نيل . . ألا يزال لدينا وقت للذهاب إلى الشاطىء .

www.elromancia.com

- إذا كانت السيارة سليمة، واستطعنا إيجاد من يخرجها من ورطتها . وإلاَّ . . .

ابتسمت بسخف :

- مرة أخرى إذن . . لكنني لن ألومك إذا لم تأخذني معك .

- ولن ألوم نفسي . . مسكينة إيلثيا . . تشفقين على نفسك؟

- أنا أتساءل فقط كيف سنعود إذا لم نستعيد السيارة اليوم .

- لست أدري . . ربما سنضطر للانتظار حتى الصباح .

- أوه . . لا نيل . . لا بد من وجود باصات . .

- يوم الأحد . . وفي الريف . . ؟ لا أظن هذا محتملاً .

- تاكسي إذن . . لا بد من وجود وسيلة للخروج من هنا حتى في يوم أحد .

منزل المزرعة بدا مهجوراً في البداية، ثم ظهر رجل من خلفه نظر إليهما باستغراب، فابتسم نيل له :

- آسف لازعاجك . . لكن سيارتنا عالقة في الخندق وراء حقل الذرة ونحتاج لاستخدام الهاتف للاتصال بالكاراج .

هز الرجل رأسه مشفقاً، وعيناه تطوفان بجسد إيلثيا :

- دخلتما المنعطف الخاطىء . . اليس كذلك؟ ليست المرة الأولى الذي يحدث فيه هذا ولن تكون الأخيرة . . لكنها المرة الأولى التي يعلق أحد في الوحل .

- أنستطيع استخدام الهاتف سيد . .

- وايت . . لكنني لا أملك هاتفاً .

- أه . . إذن . . هذه نهاية الأمر .

رفعت إيلثيا نظرها إلى نيل لتجده يحدق بها، ثم يسأل :

- أهناك باصات ؟

- ليس يوم الأحد يا سيد . . أبداً .

- ولا طريقة لاستقدام تاكسي . . يبدو أننا علقنا هنا حبيبتي!

كلمة التحبب أعادت اهتمام المزارع بايلثيا، فقال :

- اعتقد أن السيدة الشابة بحاجة إلى فنجان شاي . . هه عزيزتي؟

رد نيل :

- فكرة جيدة . اذهبي معه لتناول الشاي، بينما أكمل سيري أفتش عن كاراج أجد فيه من يساعدنا .

بدا الذعر على وجه إيلثيا، ولاحظ المزارع هذا، فقال :

- لا أظن السيدة تود أن تتركها هنا لوحدها . . أليس كذلك عزيزتي؟

- أوه . . لا . . أرجوك لا تسيء فهمي .

- لا بأس في هذا . . اسمع . . لديّ تراكتور، واستطيع إخراج سيارتك بسهولة .

ضحك نيل .

- شكراً لك . . أنا واثق أن لا عطب في السيارة، ولو أخرجناها لاستطعنا إكمال طريقنا .

- لكن أولاً . . يجب أن نشرب الشاي . . تفضلا إلى الداخل .

بعد الشاي . . أخرج المزارع التراكتور، وهم في الطريق قال :

- إذا لم تستطع إدارة السيارة بعد إخراجها . . لدي مكان يمكن أن تبيتا فيه، إذا لم تمانعا .

- صحيح؟ حسناً . . إذا لم نستطع الذهاب سيد وايت، يمكن أن نستفيد من ضيافتك .

سارعت إيلثيا تقول :

- لن يكون هذا ضرورياً . . شكراً لك . سنتدبر أمرنا ولو اضطررت إلى السير حتى الطريق العام .

بقليل من الجهد حرر التراكتور السيارة من الخندق الموحل وتفحص الرجلان الأضرار. وشكر نيل المزارع . . ثم انطلقا عائدين من حيث أتيا . . كان الغضب بادياً على نيل وأحست بالندم أكثر مما تود أن تعترف . . كانت تعد لقضاء يوم رائع . . وها هي الآن على خصام معه حول اقتراح قام به مزارع مجهول لهما . . وربما كان قصد نيل مجرد المزاح . . وهي كانت حساسة أكثر من اللزوم .

ولم يكن من السهل عليها أن تتنازل لترضيه، لكنها التفتت إليه لتقول :

ـ نيل . . أنا . . آسفة .

لم يرد . . بل ابعد يده عن المقود ليضعها فوق يدها وابتسامته لا زالت ممازحة :

ـ لا تهتمي . . لننسى كل شيء، ونتمتع بما بقي من يومنا . .

أطرقت ايلثيا . . لكن، في مكان ما من مؤخرة رأسها . . بقيت لفكرة المحيرة تراودها . . . أكان جاداً حول اقتراح المزارع لهما بالبقاء هناك كما بدا عليه؟

بسرعة، زجرت نفسها، وقررت أن هذا ليس بالتفكير الملائم الذي يجب أن تفكر به .

٦٠

نار الغيرة

المهرة التي اشتراها نيل من معرض الخيول، والتي أطلق عليها اسم «الثي». كانت أكثر حركة من الجوادين اللذين اعتادت عليهما . . ولم يسمح لها نيل بإخراجها حتى هذا الصباح . . بعد أن اقنعته ووافق على مضض .

بدا على المهرة أنها لا ترغب في شيء أكثر من أن تركل الهواء بقائمتيها الأماميتين وتظهر بعضاً من روحها المتمردة . . لكنها بدلاً من ذلك . . أذعنت للسير برزانة، رأسها الصغير مرتفع وكأنها تعترض .

خرجت بها وحيدة، فنيل مشغول في مزرعة مجاورة حول شحنة علف لم تصله . فقطعت بها المراعي كالعادة، لتلتف في الممر وراء الحرج الصغير الذي يخفي رايڤن هال عن الأنظار لحوالي المئتي متر . المكان دائماً، كان يعطي ايلثيا إحساساً بالعزلة كانت تتمتع به أحياناً، دون وجود اثر لمخلوق . . إلى أن تظهر مزرعة بايتس في الجهة الأخرى للساقية، المختبئة خلف مرتفع من الأرض .

كان هناك هواء قوي يرفع لها شعرها من حول وجهها . . ويلفعها

www.elromancia.com

دافعاً الدم إلى وجنتيها . . والمهرة كانت مستكينة معها أكثر مما آملت . . إنها دون شك مهرة قوية صحيحة الجسم . . وبدأت الأرض تنخفض باتجاه الساقية . .

تركت إيلثيا الأشجار وعادت إلى العراء . . ولمحت فارساً آخر يتقدم نحوها . . . ولم تكن تتوقع أن ترى تريستا ماك كري أبداً . الجسد الطويل، الرجالي تقريباً، في ثياب مختصرة وبنطلون شورت ، كانت تجلس بثقة فوق السرج . . ولا بد أنها رأت إيلثيا . . مع أنها لم تظهر هذا .

لم يبق بينهما سوى ما يقارب المئة متر، مع ذلك لم يظهر على تريستا أي دليل على محاولة التحية . . ثم تذكرت إيلثيا حين لاحظت النظرة الحادة، أن المرأة كانت تحاول الحصول على المهرة أيضاً . وتريستا ليست المرأة التي تخسر شيئاً بإرادتها . . وهذه هي خيبتها الثانية بعد المهر الصغير أمام إيلثيا . واصبحتا الآن قريبتان بما يتعذر على إيلثيا استمرار تجاهلها :

ـ مرحباً تريستا .

لكن تريستا لم يكن لديها مثل هذه المجاملات الاجتماعية التي يفرضها الأدب . فلم تزعج نفسها حتى بهزة رأس، المعتادة منها لرد التحية . . فقد كان اهتمامها ينصبّ على المهرة . . ولا اهتمام لها اطلاقاً بفارستها . . وسألت بحدة :

ـ أيعلم نيل أنك تركبين هذه المهرة ؟

رفعت إيلثيا رأسها متحدية :

ـ طبعاً .

التوى فم تريستا بعد أن لاحظت صعوبة تهدئة المهرة على إيلثيا . وقالت :

ـ أنا مندهشة لقلة إدراكه . . هل أنت قادرة على السيطرة عليها؟

أحمر وجه إيلثيا :

ـ قادرة تماماً . . وشكراً لك . . وما كنت لأركبها لو لم أكن متأكدة من قدرتي!

ضحكة شرسة دون مرح استقبلت كلامها .

ـ لست واثقة من هذا . لديك عادة أن تحاولي قضم لقمة أكبر من فمك . . أليس كذلك؟

وكأنما المهرة أرادت إثبات صحة كلام تريستا، وقررت التصرف لوحدها، فاضطرت إيلثيا إلى تحمل دورانها لدقيقة أو دقيقتين وهي تحاول التخلص من اللجام . وأخيراً قالت :

ـ كما ترين . . استطيع السيطرة عليها . . وأنا لم اقضم لقمة أكبر من أن أستطيع مضغها .

ـ حتى الآن أجل . . لكنني لا أضمن عودتك إلى المزرعة . . يبدو لي أنك لن تنجحي مع جواد جامح الروح أكثر مما تنجحين مع رجل . لا تنكري هذا . . لقد حاولت جهدك دفع نيل إلى النظر إليك . . بغباوتك وقلة تدبيرك . لكنك لم تنجحي . . وتعلمين هذا . . فهو قادر على اكتشاف الاعيبك بسهولة . . كان يمكن أن تنجحي منذ سبع سنوات . . لكن ليس الآن .

ردت إيلثيا ببرود وثبات :

ـ يبدو أنك تعرفين بنواياي أكثر مما أعرفها أنا . . آنسة ماك كري . . في الواقع ليس لي الرغبة في الوقوف هنا لأتبادل الكلام اللاذع معك .

لكن تريستا سارعت إلى الإمساك برسن المهرة، التي أخذت تهز رأسها لإحساسها بالسطوة الجديدة :

ـ لا . . ليس بهذه السرعة . . فأنا لم انته بعد آنسة ترانغ .

ـ ليس لدي ما أقوله لك .

ـ لكن أن لدي شيء أقوله لك . . أعرف أنك تتصورين وجود قرابة ما بينك وبين نيل . . لكنني أعرف العكس .

ـ أنا لم ادع أية قرابة بيننا، كما تقولين . . ما عدا ذلك الرباط القانوني الذي يجعلنا قريبان من بعيد . . وأنا أعرف نيل منذ زمان بعيد .

نظرت إليها تريستا بحدة وسخرية :

ـ وكان لك غرام مراهقة به . . الجميع يعرف سرك الصغير.

صممت إيلثيا أن تحافظ على هدوءها وكرامتها بأي ثمن . . فرفعت رأسها، ونظرت من فوق أنفها الصغير إلى غريمتها :

ـ لقد كبرت عن هذا منذ سنوات . . والجميع يعرف هذا كذلك .

ـ صحيح ؟ لكنني راقبتك مع نيل، ولم تخدعيني . ولا خدعت نيل . إنه يضحك عليك . . ألا تدركين هذا؟ يجدك مصدراً دائماً للتسلية . . ولا زلت في نظره المراهقة التي تستاهل الشفقة . . ليس لك أي حظ مع رجل مثله . . وآن لك أن تفهمي هذا . . . عليك بدايفد بايتس . . إنه من طرازك . .

امتلأ رأس إيلثيا بألف رد غاضب، لكنها لم تركز على واحد منها بما يكفي حتى تذكرت أحداث رحلتها إلى الشاطىء . . إنها لم تفعل شيئاً لتذهب معه، بل هو من أقنعها وهو من كاد يقبل دعوة المزارع للمبيت معها هناك . . ولا شك أن هذا سيفتح عينا تريستا على الحقيقة . . . وابتسمت، تنظر إلى تريستا .

ـ لو كان لنيل رأي وضيع بي هكذا آنسة ماك كري، فلماذا تظني أنه أقنعني بالذهاب معه في نزهة إلى الشاطىء يوم الأحد الماضي؟ أم أنك لم تعلمي بهذا ؟

الصمت المصدوم كان أبلغ رد من تريستا . . من الواضح أنها لم تكن

تعرف شيئاً . . ثم ردت متصلبة :

ـ تكذبين !

ـ ولماذا أكذب؟ اساليه بنفسك؟

سجلت تعابير وجهها فقدان السيطرة للحظات .

ـ أيتها . .

ثم صمتت لتقول بهدوء شرير :

ـ إذا كنت تعرفين صالح نفسك . . ستعودين فوراً إلى حيث كنت قبل أن تصابي بأذى .

أحست إيلثيا أن لها اليد العليا عليها، وأغراء صب الملح فوق الجراح لم تستطع أن تقاومه فسألت :

ـ ولماذا ؟

للحظات، حيّر السؤال تريستا، ثم ضاقت عيناها . . واشتد اطباق شفتيها حتى أصبحتا كالخط الرفيع . وأجابت :

ـ لأنه ليس من طرازك . ولا أمل لك في أن تجعليه يقع صريع تصرفاتك المراهقة هذه . . ويجب أن تواجهي الواقع .

ابتسمت ايلثيا متحدية :

ـ إذا كانت الحالة هكذا . . آنسة ماك كري . . فلماذا أنت قلقة حول بقائي هنا ؟

شهقت دون وعي للنظرة الحاقدة الشريرة التي تلقتها . . وقالت تريستا من بين أسنانها .

ـ اللعنة عليك !

ودون سابق إنذار تركت الرسن الذي تمسكه، وهوت بسوطها على مؤخرة المهرة القلقة . . . «إلثي» ، كراكبتها، كانت تتوق للتحرر والانطلاق . . لكن السوط لسعها، إضافة إلى انزعاجها من الاضطرار

إلى الوقوف طويلاً والرسن مشدود. . . فانطلقت تسابق الريح. عائدة نحو الأشجار لتدخلها دون تردد. . المعجزة وحدها ابقت ايلثيا فوقها ثابتة .

لكن الأغصان المنخفضة أخذت تصطدم بها، ثم تعود لتضربها ثانية والمهرة منطلقة فوق الأرض الرطبة بطيش وتهور. ثم خرجت إلى العراء من الناحية الأخرى للأشجار، تركض عبر المراعي وكأن الشيطان يلاحقها. . . وإيلثيا متمسكة بالرسن تشد اللجام بقوة. . كان الوضع أسوأ بكثير من يوم اطلقت الأغبر هرباً من نيل. . بكل تأكيد لو كان هنا، لظنها مرة أخرى من جالبات الحوادث المشؤومة. . مع أن هذا لا دخل لها فيه .

استطاعت أن تدير رأسها جزئياً لسماعها وقع حوافر ورائها. . إنه فارس آخر، لكن دون أن تدري من. . بكل قواها وتركيزها كانت تحاول استعادة السيطرة على ركوبتها. . ووجدت نفسها تتمنى يائسة أن يكون دايفد، جاء لينقذها وقد شاهدها عبر المراعي. . لكن شيئاً، كان لا سيطرة لها عليه، عرف أن القادم هو نيل، وإنه سيصل إليها قبل أن تتمكن المهرة من رميها .

استطاعت الآن أن تسمع صوت الحوافر على الأرض قربها بعد أن تمسكت بشعر عنق المهرة وقد أفلت منها الرسن. لكن بدا وكأن ساعات مرّت قبل أن يدركها الجواد الآخر، ولم تجرؤ على الالتفات لترى من هو راكبه. . وصاح بها صوت نيل :

ـ اتركيها. . ! حرري قدميك !

ـ لا أستطيع نيل!

ـ اتركيها إيلثيا .

أحست وكأنها سائق سيارة يغمض عينيه، ويتمنى الأفضل. . وفي

لمح البصر كانت ذراعه قد رفعتها عن السرج ووضعتها بخشونة أمامه. . حيث دفنت رأسها في صدره . وبقيت ذراعه تحيط بخصرها بينما وضع وجهه على شعرها . . ولم يقل شيئاً لدقائق. . ثم رفع لها ذقنها ليشاهد شحوبها وعينيها الواسعتين رعباً :

ـ أفضل حالاً الآن ؟

ـ أجل. . أجل. . أظن هذا .

ـ لا أستطيع الثقة بك لوحدك في أي شيء. . أليس كذلك! كيف تتمكنين دائماً من زج نفسك في المتاعب؟

السؤال ذكرها باتهامات تريستا ماك كري، فاشاحت بنظرها عنه وتنهدت :

ـ لم يكن بيدي حيلة .

ـ ولن يكون بيدك حيلة إطلاقاً. . وستبقين تنتقلين من مشلكة إلى أخرى. . أليس كذلك ؟

ـ لا . .

ـ من الجيد أنني أتواجد دائماً في الجوار لأنقذك. وإلاّ فالسماء وحدها تعرف أي مأساة قد تواجهين .

ـ تبدو كأنك تظن أنني فعلت هذا عمداً .

ـ وهل فعلتها عمداً ؟

ـ بالطبع لا . . ! أرجوك لا تصدق تلك الفكرة عني .

ضمتها ذراعه قليلاً وضحك .

ـ لا أعتقد أبداً أن أي أحد يخاطر بإرادته كما تفعلين. . واعتقد أنني الملام هذه المرة. ما كان يجب أن أتركك تركبين المهرة . إنها سريعة جداً عليك .

ـ لكنني استطعت السيطرة عليها بشكل رائع

رفع عيناه إلى السماء وكأنه يتضرع :

ـ هاه . . ! استمعوا إليها! كانت مسيطرة بشكل رائع !

ـ كنت هكذا . . حتى . . .

ـ حتى ماذا ؟

ـ حتى تدخلت تريستا ماك كري .

ـ وما دخلها في هذا ؟

ـ لقد . . ضربت «إلثي» بالسوط .

ـ ضحك :

ـ أية «إلثي» ؟

ـ أنا جادة نيل . . لقد ضربت المهرة متعمدة إجفالها .

ـ كيف . . ولماذا؟

ـ كيف . . سهل شرحه . . فقدت أعصابها وضربتها بالسوط .

كانت الضربة دون رحمة، ولم يكن أي منا يتوقعها . .

ـ فأجفلتما معاً ؟

ردت بغضب :

ـ أووه . . ما الفائدة؟ أعرف أنك لن تصدقني . . كان يجب أن اعرف أنك ستعتبرني كاذبة !

ـ لم أفعل مثل هذا . . لكن ما لا أفهمه لماذا فعلت مثل هذه الحماقة . وهي لا بد تعرف أنك لن تستطيعي السيطرة على المهرة وهي خائفة .

لو عرف ما قالته لها تريستا، فلا بد أن يضحك، وستجد هذا لا يحتمل .

ـ لست أدري .

رفع لها رأسه لتنظر إليه :

ـ حين تخفضين رأسك هكذا، وتتمتمين . . يصيبني الشك . لماذا

تفعل تريستا أمراً غبياً كهذا لمحاولة كسر عنقك الجميل؟ إنها لا تفعل شيئاً دون سبب !

انتزعت نفسها من قبضته :

ـ بالضبط .

تنهد بشدة :

ـ إذا لم توضحي الأمر بدلاً من هذه الهمهمات الفارغة . . أقسم أن أصيبك بضرر .

ـ أوه . . لا تدعي أنك لا تعرف . . لست أنا المتلبدة الواهن . . بل أنت!

ـ ربما . . فاشرحي لي .

ابتعلت ريقها بصعوبة :

ـ إنها . . إنها . . لا يعجبها أن نكون . . أن أكون صديقة لك . .

عضت شفتها بقوة لسماع ضحكته الرنانة :

ـ هذا أكثر شيء سخيف سمعته في حياتي !

ـ أعرف هذا .

ـ وماذا قلت لها حتى انفجرت غضباً؟ لا بد قلت لها شيء .

ـ ذكرت لها فقط . . . رحلتنا إلى الشاطىء الأحد الماضي . .

هز رأسه ببطء .

ـ أيتها اللعينة . . تحبين دائماً أن تضعي القطة بين الحمام .

ـ لا . . لا أحب هذا . . انزلني الآن . . يجب أن استعيد «إلثي» .

ـ لا داعي لهذا . . سالتقطها أنا . . اركبي هذا الجواد وعودي إلى المنزل . . لن يزعجك، فقد تعب معي كثيراً .

ذلك المساء، كانت على موعد مع دايفد . . وجلست إلى جانبه في سيارته صامتة، ولاحظ صمتها، لكنه لم يسألها السبب .

www.elromancia.com

ثم هز رأسه :

ـ كنت أفكر أن أخذك إلى مقهى جميل اكتشفته . . إذا رغبت بالطبع .

هزت رأسها :

ـ طبعاً . . سأحب هذا .

ـ كما تشائين، طالما أنت سعيدة .

ابتسمت تنظر إلى الوجه الوسيم الأشقر والعينان الرماديتان الجميلتان . . دايفد تتمنى أية فتاة أن تكون معه . . وتساءلت كم تعلقت به خلال وجودها هنا . فردت .

ـ أنا سعيد عادة .

ـ يجب أن تكوني سعيدة دائماً . . أحبك إيلثيا .

ارتبكت، وحاولت إخفاء ارتباكها :

ـ صحيح ؟

ـ تعرفين أنني أحبك .

وجدت أن من غير المعتاد أن تسمع فتاة مثل هذا الاعلان وهي في سيارة تطير بها تسابق الريح في الريف . . لكنها قالت :

ـ أجل دايفد . . أعرف هذا .

صمت لحظات ثم قال :

ـ لكنك كنت تفضلين أن لا أقول لك .

ـ أوه . . لا . . ليس تماماً . .

أبطأ السيارة ثم أدارها إلى مرتفع عشبي تحت ظل شجرة تحد الطريق . . أوقفها صامتاً لحظات وقال :

ـ أحبك فعلاً . . وأظن أنني أحببتك دائماً .

مد يده ليمسك بيديها . . تعابير وجهه جادة . .

فنظرت إلى أيديهما، ثم إليه، بإحساس غريب جعل قلبها يخفق :

ـ لا بد كان لك صديقات بين فترة وأخرى . . ثم إنك كنت يومها في السابعة عشرة .

ـ لم يكن لي صديقة جدية يوماً . . كنت دائماً مجنون بالسيارات التي أخذت كل وقتي ومالي حين كنت أصغر من الآن . ثم مات أبي وأصبح بين يدي مزرعة اديرها لوحدي . . ثم إنني لم استطع التغلب على حبك ، إيلثيا .

ـ هذا مؤثر جداً . . وأنا أحسست بالغرور لاخلاصك لذلك الحب المراهق . .

التصق حاجباه فوق عينيه :

ـ أرجوك إيلثيا . . لا تستخدمي أسلوب نيل في الكلام . . فهو لا يبدو صادقاً أبداً .

ـ لم أكن أعلم أن هذه هي طريقته في الكلام . . ولم أكن اقصد عدم الصدق دايفد .

ـ لا بد أنك تفعلين هذا دون قصد، لأنك معه دائماً، واحمد الله أنه سيبتعد عنك قريباً . . عندها ربما أحصل عليك .

ـ يبعد عني . . ؟ ماذا . . ماذ تعني؟

نظر إليها بطريقة جعلتها تؤمن أنه يعني أكثر مما أراد أن يقول .

ـ ما كان يجب أن أقول شيئاً . لكنني سأفعل . . فأنا لم أعد تريستا بشيء . . وأعجب لماذا لم يقل لك نيل بنفسه .

فهو عادة ليس كتوماً حول أي شيء . . صحيح ؟

ـ دايفد . . ما الأمر ؟

ـ إنهما سيتزوجا قريباً . . نيل وتريستا . . ألم تعرفي بهذا ؟

www.elromancia.com

٧٠

لا تثق به !

مع صعوبة تصديق ما سمعت، كانت إيلثيا تعرف أن دايفد آخر من يكذب في مثل هذا. وتذكرت كيف أن نيل ضحك لفكرة غيرة تريستا منها.. وأحست بالانكماش خجلاً حين فكرت كم لا بد ظنها حمقاء.. وكأنما تريستا بحاجة لأن تغار من أحد.. والأقل من إيلثيا..!

كان قد مضى عليهما وقت لا بأس به في المقهى حين قال لها دايفد :

ـ أعرف نادياً.. نستطيع فيه أن نرقص ونتعشى.

ضحكت إيلثيا :

ـ ولمَ لا؟ اتحب الرقص ؟

بدا عليه الإنزعاج.. وقال مؤنباً :

ـ ألا تذكرين؟ أول مرة رأيتك فيها طلبتك للرقص.. وبقيت أحلم بالأمر لأشهر قادمة.

ـ صحيح ؟

حاولت جهدها أن تتذكر ابن السابعة عشرة الذي كان يلاحقها بافتتان ثم قالت :

ـ كم أخجل من أنني لا أذكر شيئاً.. كنت صغيرة بالطبع.

ـ لكنك تذكرين مشاعرك لنيل.

هزت رأسها :

ـ أجل.

ـ والآن ؟

ـ لا.. بالطبع لا.

ـ إذن هيا بنا.

ـ فلنذهب.

النادي الذي أخذها إليه كان من النوع الذي لم تكن تتصور أن يرتاده، خاصة بعد أن قال لها عن انفاق ماله ووقته على السيارات الفاخرة.. لكن، لا بد أن أي شخص كان يمكن أن يتصرف كما يشاء ساعة يشاء. وبدا في الواقع معروفاً لعدد من الموجودين.

كان الجو، جو ناد ريفي مثالي، والجميع تقريباً يعرفون بعضهم البعض.. وجلسا على طاولة منعزلة، لكن سرعان ما انضم إليهما مجموعة من الناس كان دايفد يعرفهم جيداً. وبدأ الجو يبدو لها غريباً.. غير حقيقي، وكأنها تطفو في الهواء.. خاصة بعدما ظنت نفسها أنها لمحت وجه نيل وتريستا يدخلان المكان..

لكن، لا شك أن الخيال لا يمكن له أن يقطب هكذا حين تقع عيناه عليها.. ولا يمكن للخيال كذلك أن يغير طريقه ويتقدم عبر الغرفة نحوهم، وتريستا تتبعه على مضض.

ورحبت المجموعة به صائحة، ما عدا دايفد الذي نظر إليه بازدراء.. ورد نيل على التحيات، لكن بفتور، فقد كان اهتمامه مركزاً على إيلثيا، التي أحست أنها تبتسم لا شعورياً له :

ـ مرحباً ايلثيا.

www.elromancia.com

ـ مرحباً نيل . . . اتنضم إلينا ؟

نظر إلى دايفد ليلاحظ التوتر على وجهه .

ـ لا شكراً . . لن ابقى طويلاً . . تبدون وكأنكم شلّة مكتملة .

رد دايفد :

ـ وهذا ما نعتقده . .

هز نيل رأسه . . ثم تردد لحظات ينظر إلى إيلثيا ، ثم ابتعد ترافقه تريستا . . ولسبب لم تفهمه إيلثيا أحست بالذنب . وتاقت لأن تقف وتلحق به . . لكنها التزمت مكانها صامتة .

كان الوقت متأخراً حين غادرا الملهى . . وقال لها دايفد وهما في السيارة :

ـ سنعود من الطريق الطويلة . . أحس برغبة في أن أطلق العنان للسيارة هذه الليلة . . . وهذا كله بسبب تأثيرك عليّ .

ووضع ذراعه حول كتفيها ليضمها إليه قليلاً ويضع رأسه على شعرها .

ـ حبيبتي إيلثيا . . أنت تؤثرين على قلبي .

ـ أرجوك دايفد . . أنا لا أحب السرعة الزائدة . . فكن على حذر .

ـ لا تقلقي . . أستطيع القيادة على هذه الطريق وعيناي مغمضة .

جلست معه منكمشة هادئة . . فأخرج السيارة إلى الطريق ، ثم غيّر سرعتها ، لتقفز إلى سرعة مجنونة ، لف بها أول منحنى أمامه بسرعة جعلت قلبها يقفز إلى حنجرتها . فتمسكت بالمقعد وهي تعلم أنها ترتجف . . وإزدادت سرعة السيارة غير عابىء بالظلام الخدّاع الذي يسببه القمر المكتمل على الطريق .

أي استخفاف ، أو محاولة مرح ، طارت من رأسها فوراً أمام رعب حقيقي من الخيالات المارة بهما بسرعة ، والطريق الملتوية التي تنطوي

أمامهما . . . وحدقت أنوار السيارة الأمامية بالأشجار العالية حولهما ، ثم التفافة سريعة للمقود ، أوصلتهما إلى الظلمة بعد أن تجاوزا المنعطف .

لا بد أنهما يقتربان الآن من المنزل . . لكن المقود لم يدر بالسرعة المطلوبة بين أيدي دايفد ولم يستقم الطريق كما كان يتوقع . . بل انحرف إلى الناحية الأخرى بحدة ارسلت السيارة هذه المرة إلى ظلمة حقيقية وفي لحظات ابتلعتهما هذه الظلمة .

بالكاد كان هناك صوت اصطدام . . الشجيرات الشائكة المنخفضة على جانب الطريق ، امتصت معظم الصدمة ، وجلست ايلثيا لحظات هامدة تغطي رأسها بذراعها . . لا تجرؤ على النظر إلى الأعلى . . ولم يتحرك دايفد بقربها . . فأحست ببرودة الأشباح تهزها وهي تنظر إليه .

كان متمدداً وذراعه فوق رأسه ، فمدت يدها تلمسه .

ـ دايفد ؟

ظنته تأوه . . فأحست بالراحة . . وبأفضل ما تستطيع حركته ونظرت إلى وجهه . . بدا لها غير مصاب ، بالرغم من فقدانه الوعي . فأحست بالعجز . . ونظرت إلى القمر البارد الذي لا لون له والذي يغسل كل شيء حولها بنوره . . لكن ليجعل المكان منعزلاً مخيفاً . . في مكان ما عبر هذا الطريق ، لا بد من وجود كشك للهاتف . . ويجب أن تصل إليه لطلب المساعدة .

تمكنت من الزحف إلى خارج السيارة بعد كثير من الصعوبة . . لكن مع ملاحظتها أن مكدومة ، ومتصلبة . . وداست في بركة وحل إلى جانب السيارة . . وكرهت أن تترك دايفد لوحده . . ولم يكن معها ورقة وقلماً لتكتب له ملاحظة أنها ذهبت طلباً للعون في حال استفاق ولم يجدها ، لكنها لم تجد ، وما كان عليها سوى تركه آملة أن يكون على ما

يرام لوحده .

سارت لأميال دون ظهور أثر لغرفة هاتف . . . واحست بألم في قدميها، دوار في رأسها من أثر الصدمة . . وما أن ظهر الكشك عند المنعطف التالي، حتى كانت على وشك البكاء . . فطلبت رقماً دون تفكير، واجفلت لسماع صوت نيل الحاد :

ـ إيلثيا؟ أين أنت بحق الجحيم ؟

وأطلق نفساً حاراً يدل على الارتياح .

ـ لست أدري بالضبط . . لكنني في مكان ما على الطريق الريفية في غرف للهاتف .

ساد صمت قصير ثم سأل بهدوء :

ـ ما الذي حدث؟

ـ حصل لنا حادث و . . .

ـ أهل أنت بخير ؟

ـ أجل . . لكن دايفد . .

ـ لا يهمني ما يحدث له . . فلقد عرفت بنفسي مدى تهوره، ولا أظنه يملك ما يكفي من عقل ليتغير .

ـ أوه . . نيل لا تكن سريع الإدانة هكذا . . أنا أحتاج إلى مساعدة . . و . . .

ـ أظنني أعرف أين أنت على الطريق الريفي . . ابقي مكانك وساصل بعد عشر دقائق . .

ـ لكن يجب أن أعود . .

ـ ابقي مكانك . ابقي حيث استطيع أن أجدك، اتفهمين ؟

ـ أجل . . أجل نيل .

وجلست محبطة على أرض غرفة الهاتف الصغيرة، فقد أحست أن

ركبتيها لن تحملا جسدها الصغير . . . أنوار سيارة قادمة على الطريق أعادتها واقفة، وأطلقت تنهيدة ارتياح حين شاهدت نيل وكما توقعت كان مقطباً . لكن حين شاهد منظرها المشعث ودموعها على خديها . . حضنها وأدخلها السيارة بلطف .

وهو يقفل بابه ويجلس وراء المقود تمتمت :

ـ دايفد . . سنذهب لرؤيته . أليس كذلك ؟

ـ طبعاً .

ـ شكراً لك .

ـ كم يبعد من هنا ؟

ـ لست أدري بدا لي أنني سرت أميالاً . . لكن على الأرجح ليس بعيداً .

بدا هيكل السيارة وضوؤها الأمامي لا زال مضاءً بين الشجيرات المغبرة، وسائقها لا زال خلف المقود كما تركته إيلثيا، وكأنه نائم . فاحست بخوف بارد فجأة . . وبدا لها عاجزاً وغائباً عن الوعي . نزل نيل بعد أن أمرها بحدة أن تبقى حيث هي . وتقدم ليفتح الباب بصعوبة، ثم ينحني ليتفحص دايفد بعناية . . ثم أخذ يسحبه إلى الخارج نحو العشب، وظنت إيلثيا أنها سمعت صوت آهة خفيفة . فقالت :

ـ نيل . . ! هل استطيع المساعدة ؟

ـ ابقي حيث أنت، فلقد فعلت ما يكفي الليلة . . ولا أريد لحادثة أخرى من حوادثك المشؤومة أن تحدث . . .

انكمشت تعض شفتها، بينما حمل نيل دايفد على كتفه ووضعه في المقعد الخلفي لسيارته . . وفتح عيناه قليلاً وقال شيئاً لم تفهمه . فسألت :

www.elromancia.com

ـ أهو بخير؟

ـ أجل . . وإذا كان ما استقبلني به من كلام قبل أن أسحبه مقياساً فهو على أتم ما يرام .

ـ لكنه فاقد الوعي .

ـ صحيح . . لكن هذا لا يعني أنه مصاب . . فليس فيه حتى كدمة واحدة . . أو ما يظهر منها . إنه محظوظ . . وكذلك أنت . . . هل حركته بعد الاصطدام ؟

ـ أجل حركت رأسه . . كان يتكىء على المقود ورأسه بين ذراعيه .

ـ إنها أفضل طريقة لقيادة سيارة مسرعة في منعطف خطر . أنا لست بطبيب، لكنني واثق أنه بخير . . وسيتلقى عقوبة قانونية على رعونته . . أهذا ما تريدين ؟

ـ لا . . طبعاً . .

ـ إذن . . من الأفضل أن نأخذه إلى منزله ونضعه في فراشه، وسأتصل بالكاراج لانقاذ السيارة في الصباح . . وهذا سيعطيه وقتاً لاستعادة وعيه قبل أن يضطر إلى الإجابة على تحقيق البوليس .

وابتسم ساخراً . . وتساءلت ما إذا كان راضياً كما يبدو عليه فعلاً . فلم يكن من السهل عليها يوماً أن تفهمه جيداً، ولو في أحسن حالاته .

ـ آسفة لازعاجك في مثل هذه الساعة نيل . . صدقاً . . أكنت في الفراش ؟

ـ لا!

ـ هذا ما ظننت، فقد أجبت الهاتف بسرعة .

ـ كنت أنتظر أن يحدث شيء ما .

ـ وماذا تعني ؟

ـ الأمر واضح . . لا بد أن شيئاً كان سيحصل . . وهذه صفة

تلازمك دائماً . . وازدادت ريبتي بعد أن تأخرت في العودة . ولم يكن أمامي سوى الانتظار والأمل بالأفضل .

أحست باضطراب قلبها فجأة، وتسارع نبضاتها :

ـ أكنت تنتظرني ؟

ـ كنت أنتظر حدوث شيء . فلا فائدة من محاولة النوم والمرء يحس أن شيئاً سيحدث . فانتظرت أصلي إلى الله أن لا تنتهي حياتك الشابة في هاوية على الطريق .

أطرقت برأسها ولامس كم سترته :

ـ آسفة نيل .

ـ لو أنه فعل بك هذا، لحطمته بيدي، دايف بايتس هذا . . إذا لم يكن قد فعل بنفسه هذا .

لم تعد تجرؤ على قول شيء وهما يتجهان إلى منزل دايفد . . وانتظرت إلى أن فتش نيل في جيوب دايفد عن المفاتيح ليجدها ويفتح الباب ويضيء الأنوار في الداخل . ثم يخرج دايفد من السيارة ويحمله إلى غرفته، ولم يمض سوى وقت قصير قبل أن يعود وينضم إليها في السيارة .

حين انطلق نيل نحو المنزل من جديد، كانت على وشك البكاء . . لكنها أدركت أن هذا بسبب إحساسها بالإحباط بعد الحادثة . . صدمة متأخرة، أو ما يشبهها، أكملا الطريق بصمت وأخذت تتساءل بما يفكر . . ايشعر بالغضب منها أم أنه يلوم دايفد فقط . . أدخل السيارة إلى الكاراج . . ودخلا المنزل معاً . . وأحست بالم حاد في رأسها حين تعرض للنور، وكان على وجهها آثار الدموع . . فقالت بضعف :

ـ تصبح على خير نيل .

لكنه أمسك بذراعها وهي تصعد أول سلمة . . فتوقفت مضطرة أن

تنظر إليه، وقال بهدوء :

ـ من هنا .

وقادها إلى غرفة الجلوس حيث أجلسها في مقعد ثم جلس قبالتها . .

فقالت :

ـ نيل أنت تعرف أنني . .

ـ أعرف أنك نلت ما يكفيك الليلة . . لكنك بحاجة إلى الراحة قليلاً للتخلص من الصدمة قبل ذهابك إلى النوم.تلمس أثر كدمة قوية على ذراعها

ـ أهناك غير هذه ؟

ـ لست أدري .

سخر منها بلطف :

ـ لست أدري . .

أخذت منه فنجان القهوة الذي صبه من إبريق كهربائي وأحست بالارتجاف ثم انحدرت دمعة على خدها .

ـ أفضل أن أذهب إلى النوم . . أرجوك .

ـ اشربي هذا أولاً .

ـ لا أريده . . أرجوك نيل . . لا تأمرني هكذا ! أرجوك!

ـ أنا لا آمرك . . ايلثيا! أحاول فقط مساعدتك . . لكنك لا تثقين بي . . أنت لا تثقين بي . . واتمنى على السماء أن أعرف السبب .

وأطبقت ذراعاه حولها، ولم تستطع سوى أن تدفن وجهها في صدره . . كانت تعلم أنها لا يجب أن تكون بين ذراعيه . . فدايفد هو الذي يحبها . . ثم أنه هو من قال لها أن نيل سيتزوج من تريستا . . ومن الخطأ أن تكون هنا . . هكذا . . بين ذراعيه . . حتى ولو طلباً للمواساة . . وتمتمت :

ـ يجب أن أذهب . .

ـ إلى أين ؟

وضعت يديها على صدره ودفعته عنها بقوة، ثم وقفت عن المقعد، واتجهت إلى الباب قبل أن يتمكن من إيقافها :

ـ تصبح على خير نيل . . .

عند الباب توقفت لتستدير إليه .

ـ أتمنى لك السعادة . . أنت وتريستا .

ـ ايلثيا !

سمعت صرخته وهي تقفل الباب وراءها . . وتساءلت ما قد يريد أن يقوله لها لو عادت لتستمع إليه . . لكن ، وكما قال بنفسه . . إنها لا تثق به . .

ولا كانت، كما أدركت وهي تركض السلم إلى غرفتها . . تثق بنفسها أيضاً . . خاصة أمامه .

www.elromancia.com

٨٠

حب المراهقة الدائم

لم تندهش ايلثيا في الصباح التالي حين اكتشفت أن نيل قد غادر المنزل باكراً . . . في الواقع، كانت قد تعمدت أن تنزل لتناول الفطار بعد أن يخرج . . فهي لن تتمكن من تحمل سخريته المعتادة عما حدث ليلة أمس . وبالتساوي، كانت كذلك تعلم أن له الحق بأن يغضب لكلماتها الجارحة . . إذ أدركت متأخرة أنها فضحت أمامه واقع معرفتها بأمر زواجه من تريستا . . وما كان عليها أن تفعل، وبهذه الخشونة .

أكثر من مرة خلال ليلتها التي لم تنم فيها، كانت تتذكر كيف ناداها وهي تغادر غرفة الجلوس . . وتمنت لو أنها عادت، لكنها كانت متعبة، ولا تريد سماع شيء . دايفد هو من يجب أن تهتم به . وليس نيل .

جلست تتناول الفطار، تطيل وقت الجلوس أكثر من اللازم . . حتى أنها تركت قهوتها تبرد وهي تفكر بامكانية تقدم دايفد لخطبتها . وما هو الرد الذي ستعطيه . . بطريقة ما لم يبدو لها هذا أمر حقيقي . لم تستطع بعد أن تقرر إذا كانت معجبة به لمجرد أنه معجب قديم بها أم لأنها تجده جذاباً .

مسألة دايفد، نسيتها مؤقتاً حين فوجئت برسالة قادمة لها ، ومحولة

من شقتها في لندن . المرسل زميل قديم لها قال إنه ترك العمل في الشركة التي كانا يعملان فيها، وأنه استلم عملاً جديداً، وأن هناك وظيفة خالية في قسم المبيعات، قد تحصل عليها لو تقدمت بطلبها في الوقت المناسب وسيدعمها هو .

ابتسمت لقراءتها الرسالة، لأنها تمكنت أن تقرأ ما بين السطور ، فالمرسل معجب قديم . . وفرحة الحصول على وظيفة جديدة ، وبراتب وعمولة أفضل، كانت مغرية، كائناً من يكون مقترحها . . مع ذلك، كانت كارهة لأن تغادر رايڤن هال، لكنها تعرف أن الأمر حتمي عاجلاً أم آجلاً، بعد أن يقرر عمها أنها أقامت عنده بما يكفي .

وجدت عمها يجلس في غرفة الجلوس، ورفع بصره الضعيف إليها بدهشة حين دخلت . . وسألها بخشونته المعتادة :

ـ لِمَ لم تخرجي الجياد هذا الصباح .

ابتسمت :

ـ أنا خارجة بعد دقائق عمي . . جئت فقط لاطمئن عليك .

ـ أنا بخير . . مع أنني لست ممتناً لمن كان يزعجني خلال الليل .

كشرت ممازحة :

ـ آسفة أننا أيقظناك . لكنني تأخرت في العودة .

ـ ظننت مع بايتس . . صحيح ؟

ـ أجل . . خرجت معه عمي . . ذهبنا إلى مقهى جميل ثم إلى نادي الريف .

ـ لكنك عدت مع نيل . أليس كذلك ؟

ـ أجل . . أجل . . عدت مع نيل .

ـ مع أنني سمعته يعود قبلك بساعات .

وكأنه يشك في أنها تخدعه . . فاحمر وجهها :

ـ هذا صحيح عمي . اتصلت به حوالي الثانية عشرة .

ـ سمعت رنين الهاتف اللعين المزعج . . ما الذي حدث؟ هل اضطررت إلى استدعاء نيل ليخلصك من دايفد ؟

ـ بالطبع لا . . ! حصل لنا حادث في سيارة دايفد . . . وكنت وحدي القادرة على طلب العون .

ـ وهل مصاب ؟

ـ لا . . . يقول نيل إنه بخير. اعدناه إلى منزله ووضعه نيل في الفراش . . لم يكن قادراً على هذا .

ـ أعجب لماذا لم يلقنه نيل درساً على رعونته . . كان يمكن أن يقتلك في تلك السيارة اللعينة . . . لا أن يضعه في فراشه .

عنفه صدمها . . وتساءلت ما قد يقوله لنيل، وسمعته يكمل :

ـ طري! طري كالزبدة . . نيل الشاب . . ! اعتقد أنه كان يفعل هذا لأجلك .

ـ لن أفكر بهذا لحظة . . إنه يحب دايفد . . ولا يريد أن يراه يتعرض للأذى .

ـ هراء . . ! ولا تتظاهري بالبراءة هكذا يا فتاة! تعرفين جيداً أن نيل يفعل أي شيء ليرضيك . . وإذا كنت لا تعرفي . . . فأنت أكثر غباء مما ظننتك !

أحست بالنار تحرك خديها، والغضب يتصارع مع الإحراج في نفسها . . وقالت ساخطة :

ـ لست غبية عمي والتر. أنت مخطىء تماماً حول نيل . . إنه . . لديه خطط خاصة بنفسه . . وارضائي ليس من بينها .

سألها العجوز بلهجة لم يكن فيها مجال للجدال :

ـ الأفضل أن تفسري لي هذا يا فتاتي !

ـ أوه . . ليس هناك ما أفسره . . الأمر أن نيل لا يهتم بإرضائي . . . ولماذا يفعل ؟

ـ أنت حمقاء ؟

ـ ربما . . سأذهب الآن إلى الجياد، قبل أن تتهمني بشيء آخر .

التفتت لتذهب ثم تذكرت الرسالة، فتابعت :

ـ لدي فرصة للحصول على وظيفة أفضل من الأولى في لندن . ولدي فرصة جيدة للحصول عليها .

ـ وهل من أرسل لك الرسالة معجب بك ؟

ـ بطريقة ما . . بامكانك قول هذا. مع أنني لم أشجعه مطلقاً .

ـ وهل أنت ذاهبة ؟

ـ قد أذهب . . فالفرصة أكبر من أن أرفضها عمي والتر . . وقد لا أحصل على فرصة مماثلة . .

ـ هل يعرف نيل ؟

أجفلت للسؤال المفاجىء :

ـ لا . . لقد استلمت الرسالة لتوي . . ثم أنني لم أر نيل بعد هذا الصباح . . سأذهب الآن لأركب جواداً وأذهب لأرى حال دايفد ، وأعرف رأيه .

ـ وهل يعنيه الأمر؟

ـ أظنه سيعنيه . . أظنه يريد الزواج مني .

ـ أووه . . هكذا إذن .

ـ هذا ما لمحّ به . . يقول إنه يحبني .

ـ لطالما كانت عينه عليك منذ الصغر . . لكنه لم يكبر .

ـ لكنني أصدقه . . ومؤمنة أن الحب أمر هام . ثم أنا لا أرى لان تنظر إلى زواجي منه بعدم رضى أكثر من زواج نيل بتريستا ماك كري .

www.elromancia.com

بدا أن عمها العجوز قد توقفت أنفاسه ، ولمعت عيناه كالحجر البارد . . ثم قال ببطء :

ـ إذن . . هذه هي لعبته . . أليس كذلك ؟

ـ أوه . . لا ! اعني لست أدري . . كل ما أعرفه هو ما قاله لي دايفد .

ـ ومن أين حصل على معلوماته ؟

ـ من . . من تريستا .

صمت طويلاً حتى أنها التفتت تنظر إليه بقلق واستغراب ، لتراه جالساً وعلى وجهه ابتسامة خبيثة ، ثم قال بهدوء :

ـ سنرى في هذا . . سنرى إذا كانت الآنسة تريستا ماك كري مهتمة جداً بزواجه حين تعلم أنه لن يحصل على شيء في وصيتي !

أرعبها ما فعلت ، وأخذت ترتجف لمجرد التفكير بما سيقوله نيل لها ، فرفعت يديها إلى وجهها وصاحت يائسة :

ـ أوه . . لا ! أوه . . عمي والتر . . أرجوك . . أرجوك لا تفعل هذا ! أرجوك لا تلقي اللوم على نيل .

ـ ومن ألوم غيره؟ لا يجب أن تتوسلي لأجله يا فتاتي . . فأنت المستفيدة لو لم يحصل على شيء .

هزت رأسها :

ـ لا أريد . . ليس إذا كان هذا يعني حرمانه . . لا أريد شيئاً من مالك .

ـ أنت غبية !

ـ ربما . . لكنني أفضّل أن لا أحصل على شيء عمي . . على أن لا يظن نيل أنني أخبرتك متعمدة كي تحرمه من وصيتك .

ـ إذا تزوج من ابنة لوسي برنتس ، فلن يحصل على قرش من مالي . . لن أدعها تضع يدها على مالي . وهو يعرف أنني أكرهها . ويعرف رأيي

بها . . إنها صائدة ثروات مرتزقة ، كما كانت أمها . . تسعى وراء اي شيء تستطيع الحصول عليه .

ـ لكن لديها مالها الخاص . . وهي تحبه .

ضاقت عينا والتر العجوز :

ـ وكيف تعرفين هذا ؟

أربكها السؤال لحظات ، ثم هزت رأسها ببطء وضمت يديها معاً وكأنها تصلي .

ـ هي . . هي من أخبرتني . . ولا بد أنها تحبه عمي والتر .

ـ لا بد ؟

أمسك بيديها المرتجفتين ، وقال بلطف :

ـ لماذا لا بد أن تحبه ؟

ـ لأنه . . نيل . . ولأن دايفد يقول إنه مشهور بسحره للنساء .

ـ دايفد بايتس كثير الكلام .

ـ عمي . . لن تحرم نيل من وصيتك . . هل ستفعل ؟

ـ إذا تزوج من تريستا ماك كري سافعل . . وهو يعرف هذا .

ـ عمي والتر . .

ربت يدها بلطف غير متوقع منه ، وهز رأسه .

ـ اذهبي الآن إلى الجياد . وسأتدبر أمر نيل حين تدعو الحاجة .

لدهشتها وجدت دايفد بصحة تامة . . ونظر إليها للحظات دون أن يتكلم ثم هز رأسه :

ـ أنت أكثر تساهلاً من نيل .

ـ نيل ؟ قال إنه سيتصل بالكراج لاحضار سيارتك . . ألم يقل لك ؟

هز رأسه .

ـ بلى . . كما أنه قرأ عليّ قانون الاستهتار بأرواح الناس هذا

www.elromancia.com

الصباح . . وتوقعت أن يضربني . . لكنه تراجع في آخر لحظة .

ـ أتعني أنه جاء إلى هنا هذا الصباح ؟

ـ بكل تأكيد .

وأدخلها إلى المنزل، وتقطيبة تفكير تقطع جبينه .

ـ وهكـذا عـرفت كم كنت غبيـاً ليلة أمس . ولم يخف عني رأيـه بي أبداً .

ـ آسفة لهذا دايفد .

بدت الدهشة على دايفد لاظهارها التعاطف معه لكنه قال :

ـ أعتقـد أنني أستاهـل . . ولنيـل لسـان لاذع كـالسـوط حـين يحس بالاهتمام في شيء . . ولقد أطلقه بالكامل ضدي هذا الصباح . . أظنـك أنت من استدعيته ليلة أمس .

ـ أجـل . . لكنني ما كنت سـأفعل لـو عرفت أنـه سيثير ضجـة حول الأمر .

ـ أعتقـد أن له الحق أن يغضب . . ولقـد هددني بـالموت الفـوري لو تجرأت على المخاطرة بحياتك وأنت معي ثانية . وبصراحة . . صدقته !

ـ لكنه كان متلهفاً أن لا يجدك أحد مع السيارة وأنت في تلك الحالة . كي لا تتعرض للاستجواب .

ـ تفكير صائب منه . لكنني أظن أنه كان قلقاً عليك، وليس علي .

ـ شرف العائلة مرة أخرى ؟

ـ ربما . . لكنني أعتقد أن لا أمل لي في الوصـول إلى أي مكان معـك بعد الآن . . أليس كذلك ايلثيا ؟

نـظرت إليه منـدهشة للحـظات . . وأحست أنه يشـير إلى شيء أكثر خطورة من كلامه . . فرددت كلماته على شكل سؤال .

ـ لن تصل إلى أي مكان ؟

ـ أعني . . أنني لن تفكري بالزواج مني بعدما عرفت كم أنا أخرق لا يعتمد عليه .

بـدا واضحـاً، أن الكثير يعتمـد عـلى ردهـا . . وأحست أن عليهـا التفكير بالرد ملياً . . لكن سؤاله في هذه الـظروف غير عـادل . . وكأنـه خمّن ردها من وراء صمتها . . فقال :

ـ لست مضطرة للرد ايلثيا . . ولن ألومك بعدما حدث ليل أمس .

ـ أوه . . أرجوك دايفد لا تقـل هذا ! قلت لـك أنني لا أحمل ضغينـة لك على ما حدث . . وأنا مستعدة لنسيانه .

أدار رأسه عن النافذة لينظر إليها من فوق كتفه .

ـ أنـا سعيـد لهـذا عـلى أي حـال . . لكن الـرد لا يـزال «لا» أليس كذلك ؟

وضعت يدها على ذراعه .

ـ أفضـل أن أقول . . ربمـا . . فلست متأكـدة من مشاعـري إزاء أي شيء . . وأرغب في وقت يمكنني التفكـير خـلالـه في شيء هـام مثـل الزواج .

ـ وهل يعرف نيل بموضوع عودتك إلى لندن؟

قطبـت :

ـ لا . . لا يعرف . . والأكثر، أنني لا أرى سبباً في أن يتوقـع الجميع مني أخذ إذن منه . . فهذا أمر لا يعنيه . . وأنا واثقـة أنه لا يهتم . فلديـه سمكة ينظر إليها بشهية .

ـ اتعني تريستا؟ لست واثقاً إن كنت أخطأت في ابـلاغك . وأرجـو أن لا تذكري هذا لأي أحد .

نظرت إليه بريبة :

ـ أخشى أن أكون قد فعلت هذا . . لقد قلت لعمي والتر .

أوه . . يا إلهي !

ـ وغضب للأمر . واخشى أن يقول لنيل . وأنا آسفه .

هز رأسه .

ـ أنا أفكر بنيل . . لقد حصلت على مسطرة من غضبه ، ولا أرغب أن أكون سبباً في انفجار نوبة غضب أخرى مثل هذا الصباح .

ـ أعرف . . ومن الأفضل الآن أن أذهب .

ـ ايلثيا . . أنت تحبين الإقامة هنا . . ثم هناك . «البرق» هل ستتركينه هنا؟ ولن تستطيعي أخذه معك .

ـ أوه . . كيف نسيته ؟

ـ أذن لن تذهبي؟

ـ ولن أستطيع البقاء على أي حال . العم والتر طلب مني الإقامة لشهرين أو ثلاثة ، ومضى عليّ الآن شهرين هنا .

ـ أنت متفقة تماماً مع العجوز الآن ، أليس كذلك ؟

ـ هذا صحيح . . أو على الأقل حتى الآن . . . أنا أحبه في الواقع . . مع أنه ليس بالرجل السهل فهمه .

ـ إذن سيرفض أن تغادري؟ بقاءك معه يعجبه .

ـ طالما أكسب معيشتي . . إنه يكره أن تكون السيدة كسولة ، خاصة الشابة . . لهذا ساضطر إلى التفتيش عن وظيفة .

ـ لكنك تساعدين نيل في الاسطبل .

واجهت حقيقة أخرى لم تفكر فيها حتى الآن . . إنها تساعد نيل في الاسطبل . . وابتسمت :

ـ لا أتصور أنني قد أعمل طويلاً معه . ليس بعد زواجه من تريستا .

ـ لا . . ربما معك حق . واعتقد أنها لن تقبل . . أكثر مما ساقبل أنا .

ـ لكنها تكرهني ، ولهذا ستكون معارضة أكثر منك .

في طريق عودتها عبر الحقول ، لم تستطع سوى التفكير بمشكلتها . . . وتنهدت اشفاقاً على نفسها . . وتمنت لو لم تعرف شيئاً عن زواج نيل . . فهي لا تحب تريستا أكثر مما يحبها عمها والتر . . وتؤمن أن ثروة نيل الموعودة هي ما تجعله جذاباً في نظرها . . مع ذلك كانت تقنعه أن هذا ليس بالسبب الوحيد .

أدخلت الأغبر إلى اسطبله ، مستغرقة في التفكير حتى أنها لم تلحظ وجود أحد هناك حتى تقدم نيل ليقف أمامها بطريقة لا تستطيع وصفها سوى بالعدائية . . . وأخذ يراقبها دون أن يتكلما معاً إلى أن أنهت خلع سرج الجواد . . فنظرت إليه ، وقلبها يقفز بجنون في ضلوعها ، لا تحتاج إلى كثير من التكهن لتعرف أنه تكلم مع العم والتر . . وقالت :

ـ نيل . . .

ـ اصمتي . . ! لمرة واحدة في حياتك ابقي صامتة واستمعي إلي .

ـ أعرف سبب غضبك . وأنا . . لا ألومك . . أعلم أنني ما كان يجب أن أقول أي شيء لعمي والتر . . وأنا آسفة . . حقاً آسفة .

ـ ستكونين أكثر أسفاً إذا لم تتوقفي عن رمي الكلام هدراً . . وتتركيني أمرر كلمة في هذه الأثناء .

ـ آسفة .

ـ قلت هذا . . اتحاولين إقفال باب الاسطبل بنفسك .

ـ ماذا تعني .

تنهد :

ـ هذا يعني أن تكون لك دائماً الكلمة الأخيرة ، دون التفكير بالنتائج سوى متأخرة . . لا يمكنك مطلقاً مقاومة إغراء الإصغاء إلى كل رواية شنيعة تسمعيها عني ، ثم تكرريها . . أليس كذلك ؟

ـ أوه . . نيل . . أنا لا أفعل هذا !

www.elromancia.com

- بـل تفعلين . . لقـد قلت لي أنني نـوع من . . زيـر النسـاء منـذ أسبوع . . حسب قول صديقك دايفـد بايتس . والآن يخـطر ببالـك أن تقولي لأبي أنني سأتزوج من تريستا . . ومن نفس المصدر، كما أعتقد .

- أوه . . نيل . . أنا حقاً لم أفكر . .

- ولا تفكرين مطلقاً . . هذه هي مشكلتك !

لم تحس ايلثيا في حياتها بهذا الصغر أو المهانـة أو البؤس . . فتمسكت بحاجز الاسطبل بيدها وكأنها تحتاج إلى دعم كي تقف . . وقالت تشرح له :

- لقد سخر مني عمي حول رغبة دايفد بالـزواج مني . . فقلت له إن هذا الزواج لن يكون أسوأ من زواجك بتريستا .

نظر إليها صامتاً للحظات . . ثم سألها :

- وهل طلب منك الزواج ؟

ابقت عينيها مخفوضتين :

- حسناً . . أجل . . بطريقة ما .

- وماذا يعني قولك هذا؟ بطريقة ما ؟

- أعني أنه طلب مني الزواج . . بطريقة ما . . و . .

شخر نيل دليل نفاذ صبر :

- هناك طريقة وحيدة لـطلب يد فتـاة . . هي سؤالها وتلقي الـرد . . نعم أو لا .

احمر وجهها آسفاً لتحديده الأساسي هذا . .

- ليس الأمـر سهل دائـماً هكذا . . طلب مني الـزواج . . لكن ليس بشكل مباشر هكذا .

- لكنه طلب منك ؟

- أجل . . طلب مني .

- وماذا كان ردك ؟

نظرت إليه بثبات، أكثر ثقة بنفسها الآن .

- لا أرى أن هذا أمر يهمك .

رأت بأم عينها اللمعان السريع الـوهاج للغضب في عينيـه ورد عليها بحدة :

- يهمني بقـدر ما تهمـك شؤوني . . وأنا لن أعـددها الآن ! . . لمـاذا قلت لأبي خرافة زواجي بتريستا ؟

- قلت لك لماذا . . لقد سخر مني . .

- وأنت رميت الـرمية وليـدة ساعتهـا . مع علمـك أنه سيغضب ، أهذا فعلت ما فعلت ؟

- أوه . . لا يا نيل . . تعلم أن هذا غير صحيح !

هـز رأسه :

- لا بـد أنك تعـرفين جيـداً أن هذا سيغضبـه لدرجـة حـرمـاني من وصيته . . مع ذلك قلتِ له .

- أنا . . لم استطع منع نفسي .

بدا عليه الاستسلام أكثر من الغضب، وقال ببطء :

- لست أدري مـا أفعل بـك . . لقد سببت لي مشـاكـل أكـثر من أي امرأة عرفتهـا . . تدخلين وتخـرجين من ورطـة إلى أخرى . . اضـافة إلى أنك ناقلة إشاعات لا تحتاجين إلى تشجيع .

- أنا لست هكذا! أنا لست ناقلة إشاعات !

- لكنك تصغين إلى كل صغيرة وكبـيرة يحب دايفد بـايتس أن يقولهـا عني . . . لقد قلبت كياني رأساً على عقب حتى أنني أفكر بالرحيل وتـرك كل شيء لك .

- أوه . . نيل . . لا تفعل هذا !

www.elromancia.com

- لكن، من ناحية أخرى. . لست أرى سبباً لأن أكون أنا الخاسر الأوحد .

لن يمر وقت طويل الآن، قبل أن تنهار وتبكي كالأطفال ، وهذه المرة قد لا يعطيها كتفه ليواسيها. . تنفست عميقاً وابتلعت الدموع التي كادت تخرج من عينيها :

- حسناً. . سأرحل أنا :

- إلى أين ؟

هزت رأسها يائسة :

- لدي. . فرصة لمركز جيد جداً مع شركة تجارية كبيرة. . وكنت سأرحل على أي حال .

- أوه. . تلك الرسالة التي قال لي أبي عنها. . وصلتك من أحد المعجبين . .

- لا. . هذا غير صحيح . . إنه زميل عمل كنت أعمل معه .

- لكن أبي قال إنه معجب .

نظرت إليه وقد غشت الدموع عينيها .

- الآن أنت من يصغي إلى شائعات. . لكنني أعتقد أن هذا يناسبك. ولا بأس في هذا معك .

ضحك بنعومة، فاستدارت عنه، بعد أن أعمتها الدموع التي تدفقت على خديها. ثم ركضت باسرع ما تتمكن على ساقين مرتجفتين بالكاد تحملانها، عبر الحديقة، ثم إلى المنزل. . ولم تتوقف إلاّ في غرفتها حيث رمت نفسها فوق السرير تنتحب كما لم تفعل منذ كانت طفلة صغيرة .

أخيراً جلست في سريرها تمسح الدموع بمنديل مبلل . . تكشر في وجه صورتها في المرآة. . حتى دايفد الولهان المخلص، سيفكر مرتين

قبل أن يعاود طلب يدها لو شاهدها هكذا .

حل موعد الغداء قبل أن تغادر غرفتها. . وخرجت بعد ألف تردد وتردد حول إخبار العم والتر بقرار الرحيل . بالطبع، لا يقدر على منعها. . ولن تهتم لو هددها بحرمانها من ميراثه . . لن تستطيع الإقامة هنا بعد الآن .

تفحصتها عينا العجوز بخبث. . مع أنها تعرف أنه من هذه المسافة بالكاد يراها. أما رد فعل نيل، فلم تكن واثقة منه. . فعيناه الغريبتان يمكنهما اخفاء أي تعبير فيهما بسهولة . وقالت لهما حين لم يكلمها أحد منهما :

- أرجو أن لا أكون تأخرت عليكما .

رد العجوز :

- لم تتأخري أبداً. . نحن جاهزان للغداء متى شئت أنت .

كانوا قد تخطوا مرحلة نصف الطعام، حين تجرأت على ذكر قرار رحيلها. . لكنها لاحظت أن العجوز لم يندهش كما توقعت . . . فنظرت بارتياب إلى نيل. . وقال لها العم :

- لست أدري ما الذي جعلك تقررين فجأة الرحيل. . لكن، بالطبع يجب أن تفعلي ما ترينه مناسباً يا فتاتي .

سراً، كانت تأمل أن يحاول ثنيها عن عزمها، وقالت له :

- أنت. . لا تمانع ؟

أفضّل أن تبقي. . لكنني أشك في أن أكون الشخص المناسب لإقناعك بتغيير رأيك .

- الأفضل أن أذهب عمي والتر. . سأتمكن من التقدم إلى الوظيفة. . و . . حسناً. . هذا هو الأفضل. . كما أظن . . وأنا. . آسفة لو خيبت أملك .

www.elromancia.com

ابتسم لها :

ـ لا . . لم تخيبي أملي .

ردت بصوت مرتجف :

ـ لقد . . وضبت حقائبي . . وسأبقى حتى الغد . . إذا لم تمانع .

هز العجوز رأسه، ومضى ما تبقى من فترة الطعام بصمت كامل . .

ثم وقف العم لينظر إليها ويقول بهدوء :

ـ لا تتسرعي كثيراً إيلثيا .

ثم نظر إلى ربيبه بحدة، وغادر الغرفة .

حين وقفت لتغادر، وقف نيل يسد طريقها :

ـ أرجوك نيل!

ـ إيلثيا !

ـ لا . . نيل . . أرجوك !

أمسكت يداه بيديها، وهي تقاوم موجه أخرى من الخوف، وشدها إليه، حتى أحست بضربات قلبه القوية الثابتة تحت راحتي يديها . .

وقال بنعومة :

ـ أرجوكِ . . اصغي إلي .

ـ لا . . لا داعي لمحاولة إقناعي لمجرد أن العم والتر قال لك أن تفعل .

ـ أهذا ما تظنين أنني أفعل ؟

ـ لقد قلت . . إنني قلبت كيانك رأساً على عقب . . . وقلت إنني سببت لك مشاكل أكثر من أية امرأة عرفتها .

ـ وهذا صحيح !

حاولت تخليص يديها، لكنه أمسكها بقوة . . فسألته :

ـ إذن لماذا تزعج نفسك بالطلب مني البقاء ؟

ـ لم أطلب منك شيئاً .

ـ أوه نيل . . أنت لا تأخذ أي شيء أقوله على محمل الجد .

ـ هذا لا ينطبق سوى على ما تحملينه إلى أبي من قصص خرافية عني .

ـ قصص خرافية ؟

ـ أجل . . وهذا ما أغضبني . وأظن أن لي الحق أن أغضب . لكن في الواقع، أظن أنني يجب أن ألوم دايف بايتس بقدر ما ألومك . فأنت مجرد ناقلة لتلك الإشاعات . . أليس كذلك ؟

ـ هذا أمر شنيع تقوله عني !

ـ لكنه صحيح يا ابنة عمي الحلوة .

إنه يضحك عليها الآن كما كان يفعل دائماً . . فقال بإصرار :

ـ دايفد قال إن تريستا أخبرته أنكما ستتزوجا . . وأنا صدقته .

ـ إذن، كان يجب أن يكون لك عقل أرجح من أن تصدقي تريس !

ـ أتعني . . أنك لن تتزوجها . . ؟

هز رأسه ببطء :

ـ أنا لن أتزوج من تريستا ماك كري .

ـ إذن فهي . . .

ـ إنها تتكلم عن شيء لا تملك له أي دليل .

ـ لكن لماذا ؟

ابتسم ببطء :

ـ أوه . . هيا الآن حبيبتي . . لقد اتهمتني مرة أنني بليد الفهم في هذه لنقطة بالذات . . أتذكرين ؟

ـ أتعني . . أنها . . تغار ؟

هز رأسه ضاحكاً :

www.elromancia.com

- أعني . . أنها . . تغار .

- لكنني فكرت أن . . .

تنهد عميقاً :

- حبيبتي إيلثيا . . أنت لا تفكرين أبداً . . وهذه مشكلتك كلها . . وإلا لعرفت أنني لن أتزوجها ولو بعد ألف سنة .

- أووه !

- وهذا ينطبق على زواجك من دايفد بايتس .

- لكنني لا أعرف أنني . . .

- لكنني أعرف . . وأنا أحبك . . ولا أنوي أن أترك دايف بايتس يهزمني .

- نيل !

- كما قلت لك . . لقد قلبت كياني رأساً على عقب . . وأوصلتني إلى مرحلة يأس حتى أنني أحسست برغبة في الرحيل .

- ظننتك ضجرت مني .

- هذا صحيح . . لكنني كنت أشك في أن استطيع استعادة هدوئي وتوازن وجودي من دونك .

- نيل . . .

قاطعها هذه المرة بطريقة فعالة أكثر، حتى أنها لم تكن لتأخذ نفساً كافياً قبل أن تدفن وجهها في صدره . . وقال لها هامساً، صوته مخنوق بشعرها :

- أنت ثرثارة صغيرة . . لكنني متعلق بك، واعتقد أنه يمكنني التعاطي معك حين أحصل على الكثير من هذه الثرثرة . . .

- لدي إحساس أنني حين أتزوجك، سأفعل ما يريده عمي والترمي تماماً

- حين تتزوجيني؟ ايعني هذا أنك لم تتغلبي بعد على وهم المراهقة ؟

ضحكت بنعومة، تنظر إلى عينيه اللوزيتين المرتفعتين عند الأطراف . . وقالت :

- لم أتمكن من هذا اطلاقاً . . لا زلت أحس بالضعف كلما نظرت إليك . . وهذا لا بد يعني أنني أحبك . . أليس كذلك؟

أكد لها نيل برزانة ووقار :

- أوه . . بكل تأكيد هذا ما يعني . .

وأعادها بين ذراعيه يثبت لها بالعقل لا بالقول صدق كلامها .

www.elromancia.com